تأكل الطير من رأسه

مجموعة قصصية

مصطفى زكي

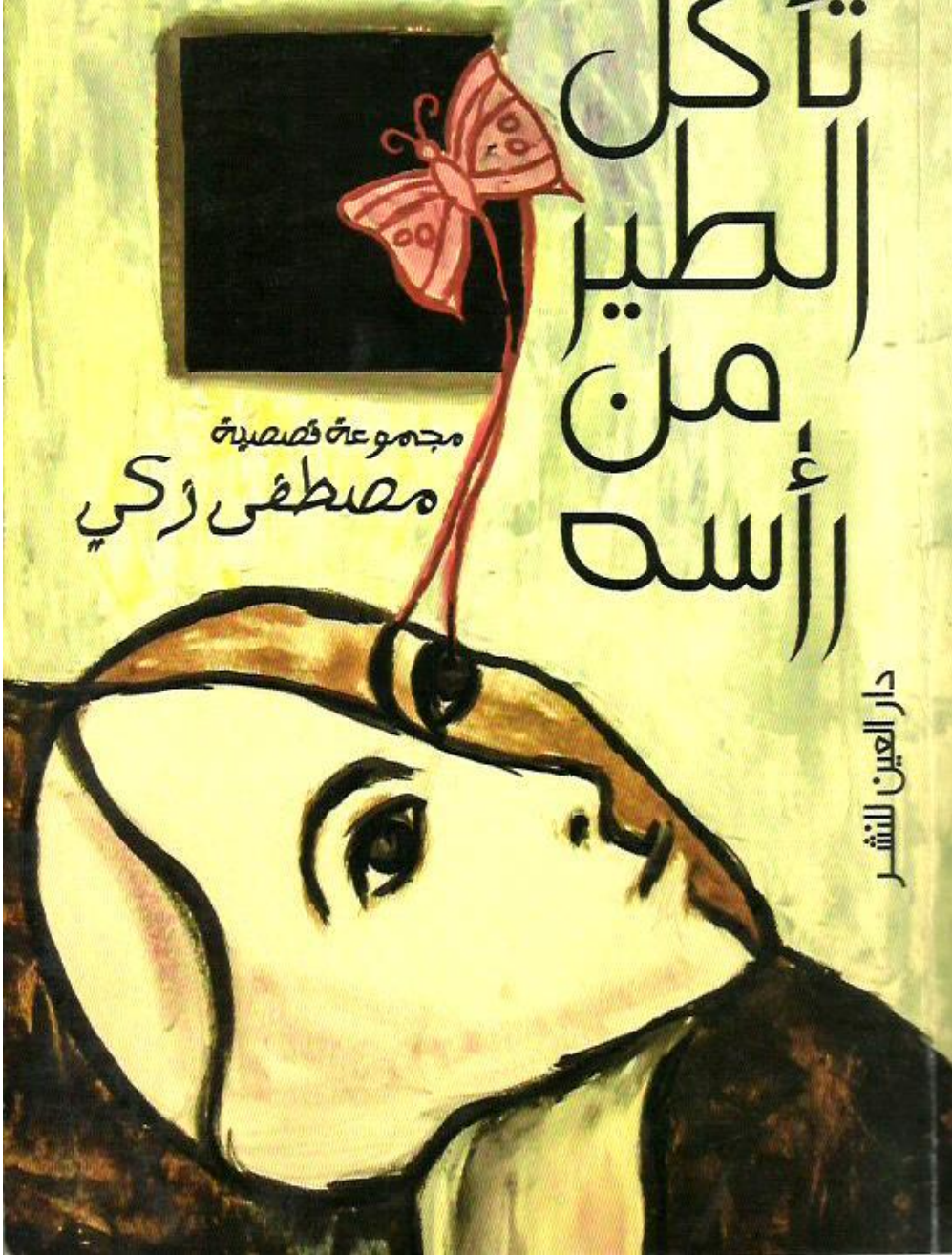

دار العين للنشر

تأكل الطير من رأسه

تأكل الطير من رأسه

(مجموعة قصصية)

مصطفى زكي

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر قصر النيل القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤

E-mail: elainpublishing@gmail com

الهيئة الاستشارية للدار

أحمد شوقي

خالد فهمي

فتح الله الشيخ

فيصل يونس

مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

فاطمة البودي

الغلاف: صابرين مهران

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢١٠١٦ /٢٠١٣

I.S.B.N 978 - 97 - 490 - 225 - 0

تأكل الطير من رأسه

مجموعة قصصية

مصطفى زكي

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

زكي، مصطفى.

تأكل الطير من رأسه: مجموعة قصصية/ مصطفى زكي

الإسكندرية: دار العين للنشر، ١٤

ص؛ سم.

تدمك: ٢٢٥ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣,٠٢

رقم الإيداع /٠١٣

إلى زياد
النبتة التي تنمو في قلبي.

المحتويات

إهداء	5
مدخل	11
نوستالجيا	13
ـ سفر التكوين	15
فراشات	19
ـ أحمد مبروك	25
حكايات قديمة	31
ـ حانات النفس الكئيبة	33
ـ صياح أخير للديك	37
ـ الإغواء الأخير لرجل عادي	43
ـ طوف	49
حظر	55
ـ حظر	57
ـ اختفاء رجل وحيد	61
ـ أشياء لا يمنعها الحظر	65

- خلوة 71
- طيف 75

حلول 79
- بابل 81
- تقمص اخير 85
- غياب 91
- البقاء فوق رصيف مبتل 99
- محاولات للخروج 103
- حفل تنكري 107
- ميكي 115

خروج 125

لقد عشنا ليلة ليست لنا، وسرقنا تفاحات، وأشاروا علينا بعلامة الصليب، ووصمونا بالخطاة.

إمبارو دابيلا

مدخل.
(إيكاروس I)

تقول الأسطورة أن ديدالوس عندما ملّ سجنه في المتاهة الشهيرة ـ التي صنعها هو ذاب يوم ـ فكر في حيلة للهرب من الجزيرة، وهي أن يخرج منها طائرًا.

كان قادرًا على هذا إلا أن العائق أمامه كان ابنه ووحيده إيكاروس. لذا قرر تعليم ابنه الطيران ليهرب معه. كان يعلم من داخله بأنه ـ إيكاروس ـ لن ينجو، وأنه سيكمل طريقه وحده.. وأن إيكاروس سيذهب للأبد..

نوستالجيا

سفر التكوين

ما أن أتت الفتياتُ وهن يرتدين الأسود حتى علمنا أن الأمس كان مشابهًا لكل الأيام الماضية. لاحظنا غياب محمد إبراهيم، وفاروق غباشي. علمنا أنهم قد تمّ أكلهم، وأن عدد النُخت الفارغة قد ازداد..

كنا نرتجف بحقٍّ، بعضنا بلل سرواله، وبعضنا تصاعد نشيجه المخنوق عاليًا. كان الجو باردًا، والغيوم تملأ السماء، الأمطار تهطل منذ الأمس، تتسرب المياه في خيط رفيع من باب الفصل المفتوح..

عملاقًا يقف أمامنا، يتطلع فينا ببطء، لم نحضر بالأمس، أنا وسامي ومحمود شاكر. يواصل النظر نحونا ليتحول بكاء محمود الخافت لنخير عالي، يرتجف وهو يندس بيننا في التَختة الضيقة محاولاً الاختفاء. سامي

كان يهز قدميه بسرعة متزايدة، وهو يثبّت نظره نحو السبورة. يتطلع إليّ طويلاً، أعرف هذا دون أن أراه.

كنا نعلم ما حدث بالأمس دون أن نحضر. الأمس، وأول أمس، وأول أول الأمس، وكل الأيام الماضية.

دخل الفصل مبللاً تاركًا الباب خلفه مفتوحًا، نشعر بالبرد، ونرتجف. يضع حقيبته السوداء الضخمة أمامه، وهو يتطلع ببطء للنافذة المفتوحة آخر الفصل؛ صوت البحر، ورائحة اليود المدفعة، واللون الأزرق القاتم، تيار الهواء البارد بين الباب والشباك.

يواصل التطلع إلى النافذة قليلاً قبل أن يغلق الباب، وهو يخلع البالطو الداكن ويعلقه مكانه خلف باب الفصل، ويسحب من جيبه "سيجار بنيًا رفيعًا، يشعله ويرسل دخانه الكثيف في الهواء البارد.

يعيد عينيه نحونا – ربما كان اليوم يومنا – يمر بنظره ببطء حتى يصل لوائل في آخر الفصل. يظل ناظرًا إليه وهو ينفث دخانه بعمق. يقبض أصابع كفيه، ويفردهما. نعلم الآتي ككل مرة سيحدث نفس الأمر. سيطرقع أصابعه، ويذهب إليه، ولكن ليس اليوم، لن يفعلها من جديد، لن نتركه يفعلها من جديد..

يجب أن تتم الخطة كما رتبنا.

سميرة ستبدأ بالتأوّه في الصف قبل الأخير، بجانب النافذة، ثم تسقط أرضا. لن يتحرك أحدٌ منا مطلقًا؛ هو من سيفعل، سيتحرك بجسمه

الضخم داخل الفصل تجاهها. ستترك الرغاوي تخرج من فمها، وستقوم بقلب عينيها. تشنجات متتالية، وأنين مكتوم..

ليلى جانبها ستصاب بالذعر، والبكاء الهستيري، ستضع يديها على فمها. سميرة ستواصل الانتفاض. وأيضًا لن يتحرك أحدٌ من الفصل.

"فيه إيه عندك.. مالك؟!"

صوته الخارج من بئر عميق، وعيناه التي تتسع.

"فيه إيه؟!"

"إلحق يا أستاذ، سميرة، سميرة مش عارفه مالها"

يقترب منها بعين بدأت في اللمعان، ويد بدأت في الارتعاش، أنفاسه تتلاحق. فريسة جاءت دون جهد..

سيقترب أكثر ويقع في الفخ. سميرة الجميلة ذات الشعر الأسود الطويل، مستلقية أمامه على الأرض تنتفض، وشعرها يتناثر حولها. سيمدُّ يده الكبيرة نحوها كأنه يفحصها واللعاب يسيل من شفتيه. تخرج ليلى من أسفل التَخْتة للخارج، تاركةً إياه وحده مع سميرة.

سيقترب أكثر، مطمئنًا إلى أننا خلفه نرتجف، سيدنو بجسده، وفي ذات اللحظة التي يميل عليها، سيقفز فريد عليه من الخلف واضعًا الأنشوطة السميكة في رأسه، وسنهب معه أنا وسامي ومحمود وجمال النوبي وعلاء ووائل، وسنقوم بدفعه من النافذة الكبيرة المفتوحة جانبه.

سيهوى معلقًا في الحبل الطويل المربوط بالماسورة جانب الشباك، ولن يتمكن من رفع جسده الضخم. سنتركه هكذا وسنغلق النافذة المطلة مباشرة على البحر، لن يراه أحدٌ من الأسفل. فلا يوجد شيء سوى الصخور والمياه، ولا نوافذ أخرى أسفل منا.

اليوم الخميس. وعندما سنعود للمدرسة يوم الأحد سنقوم بقطع الحبل وتركه يهوي في البحر وسيتكفل المدُّ والجزر بالباقي كما أخبرنا هو ذات يوم مهددًا إيانا بالإلقاء من الشباك.

يقوم وائل ببطء من مكانه في آخر الفصل ـ طويل القامة وضخم ـ نشعر به يزداد طولاً وقوة؛ لم يعد طفلاً مثلنا. يتقدم بثقة ناحية السبورة، يظل متطلعًا إليها قليلاً، يعطينا ظهره، يستدير وسط صمت مطبق منا. لا شيء سوى صوت المطر والأمواج.

يتجه نحو البالطو المعلَّق خلف الباب، يتناوله بأريحية ويرتديه، يمد يده للجيب الداخلي ليخرج "سيجار وولاعة كأنه يعرف مكانهما، يشعل السيجار، وينفث الدخان كثيفًا أمام وجهه، يتطلع إلينا طويلا دون كلام، يتطلع إلى التُخت الفارغة، تدمع عيناه، وترتعش شفتاه قليلاً، تقوم سميرة بإغلاق شباك الفصل بهدوء، ليعمَّ صمت تام على الفصل، وبمزيد من الهدوء يتناول وائل الشنطة السوداء الضخمة من أمامه، ويفتح باب الفصل ليخرج..

فراشات

(إلى زياد صديق الفراشات)

[لم نكن نعلم أن أكثرنا شفافية وملانكية هو من ستتحقق أمنيته، وحتى لو علمنا؛ ما تغير في الأمر شيء].

تتصاعد رائحة الشموع العطرية الخافتة، وسط الظلمة المحببة. صوتها الناعم:

"امسكوا الشمع كويس

نور الحجرة المطفأ، صوت الموج القادم من الشباك المفتوح، ورائحة الريحان الممتزج باليود..

تنظر لساعتها الصغيرة، وبهدوء تضع ولاعتها الفضية الجميلة بالخلف.

[هل كانت مصادفة أن اسمها هو "ميس أماني؟!].

كانت السماء بالخارج قد أظلمت، الهدوء يأتي من المدرسة الخالية بالخارج.

"خلاص.. فاضل دقايق، والنيزك يقرب" تطلعنا كلنا بسرعة نحو الشباك فرأينا النجوم البعيدة تلمع بشدة؛ القمر المتآكلة أطرافه يرسل ضوءه من بين السحب الصغيرة..

"لما أقول لكم يلا كل واحد يتمنى أمنيته من قلبه ويروح طافي الشمعة بسرعة"

أنفاسنا تتسارع، أسمع صدر محمود المصاب بالحساسية يتحشرج، وتنفس إسراء الخائف. كنت أنظر للشمعة والظلال التي تلقيها حولنا..

"دلوقتي كل واحد يحاول يركز في أمنيته لغاية ما ييجي الوقت"

أغمضنا عيوننا تلقائيًا، كنت آخر من فعل، نظرت قبلها لإسراء فوجدتها لا تزال تنظر لأعلى وابتسامة ملائكية صغيرة تعلو وجهها، وسط تنفسها السريع.

التجمع في حجرة الموسيقى آخر حصة. ربما كانت بعد الأخيرة فالمدرسة كانت خالية. الفترة المسائية، والمغرب الذي يبدو من الشباك بآخر الحجرة.

سميرة تتقدمنا ووائل خلفها بقامته الطويلة. أنا ومحمود وإسراء ندخل لنشم رائحة اليود القادمة من الشباك المفتوح.

خمسة فقط كنا، والباقي لم يختر الموسيقى "علشان بتاعة البنات واللي مش ولاد" "ميس" أماني بوجهها الجميل الذي نحبه ونحب ابتسامته.

ندخل ونجلس معها في دائرة صغيرة، أعدت هي ترتيبها بجانب النافذة.

"إنتوا عارفين إن النهاردة فيه نيزك هيعدي قريب من الأرض؟"؛ تسألنا بصوتها الجميل، فننظر لبعضنا ونهز رؤوسنا نفيًا.

"هيعدي كمان نص ساعة، وممكن نشوفه من على الأرض"، تنظر لنا مبتسمة، وتُكمل.. "عارفين لو اتمنيتوا أمنية، والنيزك بيعدي ممكن تتحقق

لم نرد، وواصلنا النظر إليها منبهرين.

"يا ترى لو اتمنيتوا حاجة.. هاتتمنوا إيه؟"

سميرة.. كانت تعدل من ضفيرتيها الصغيرتين، مالت برأسها وابتسمت، أغمضت عينيها وقالت "نفسي أكون سحابة جميلة، وأطير بعييد"

"وأنت يا وائل نفسك في إيه؟"

"مش عارف"، أجاب بحيرة وعيناه تتسعان: "مش عارف نفسي

أشوف ماما تاني قالها بخفوت وهو ينظر للأرض، صمتنا قليلاً، لم ينطق أحدنا، فقط إسراء هي من مدَّت يدها ببطء لتربت على ركبته بجوارها، وابتسامتها تتسع ببطء حتى تسعنا جميعا..

[دومًا هي إسراء المبتسمة، لم نرها مطلقًا حزينة أو تبكي، دائمًا رقيقة، مُحلقة، لا يشعر بها أحد].

"وانتي يا إسراء أمنيتك إيه؟"

"ينفع أتمنى أمنية محدش يعرفها؟"

أردنا من "ميس أماني أن تسألها ثانية؛ لكنها مدَّت يدها وأمسكت بيد إسراء بتشجيع وقالت لها: "بس تكون أمنية حلوة"

محمود.. قال على الفور: "نفسي أكون كبير وليا شنب"

لم يبق سواي.

"نفسي أطير

وقمت بفرد ذراعي جانبي وسط ضحكات منهم جميعًا عدا إسراء

التي نظرت إليّ قليلا دون كلام قبل أن تنظر لسماء الحجرة في شرود.

[ما هي أمنية إسراء؟].

[سأسألها بعد انتهاء الحصة].

"دلوقتي يا ولاد أهو هناك في السما.. شايفينه؟" نظرنا بسرعة للسماء، فرأينا نقطة مضيئة بعيدة، تومض قبل أن تختفي بين النجوم والسحب.

[تذكرت أننا نسينا أن نسأل "ميس أماني عن أمنيتها].

سمعت بعدها صوت النفخ المتداخل، كنت أيضا آخر من نفخ لتسود الظلمة حولنا، ظلمة شديدة، حتى النجوم البعيدة والقمر المتضائل.. شعرنا بنورهم يخفت ويتآكل تحت الظلام. لم نسمع أي صوت، ولا شعرنا بحركة. فقط إحساس جارف بالنعاس يسري في عروقنا.

في الصباح، سيأتي من يفتح باب حجرة الموسيقى ليجد ستة كراسي تلتف في دائرة بجانب الشباك، وعلى الأرض ست شمعات صغيرة متآكلة الأطراف، سيجد شنطة "ميس" أماني فوق المكتب لم تتحرك، وبجانبها

ولاعة فضية جميلة، وخمس شنط موضوعة جانب الكراسي. الشباك المفتوح، وهواء بحر الصباح ذي اللون الأزرق سينظر بالتأكيد حوله ليرى في سماء الغرفة ست فراشات كبيرة، تحلق حول بعضها، ربما في شيء من الخوف، وربما في كثير من الفرح.

أحمد مبروك

(إلى صديقي الذي رحل دون وداع)

1

أحمد مبروك..

صديقي الأسمر الجميل الضخم ذو الشعر المفلفل، ووجه دائم الابتسام. أسنانه مشرقة بالطيبة والوداعة، لم يكن بليدًا في الرياضيات ـ مثلنا جميعًا ـ لكنه لم يكن يحبُّها؛ لأنها تعتمد على الحفظ أكثر كان ملفتًا دائمًا لكل المدرسين بقامته الطويلة وأسنانه المضيئة.

"مبروك، قوم سمّع نظرية إقليدس

بالطبع قام مبروك؛ لكنه لم يسمّع شيئًا. ظلَّ ينظر للمدرس بحذر، وهو

يضيق عينيه كأنما يحاول التذكر نعلم أنه لا يتذكرها، والمدرس كذلك يعرف هذا.

"هاه.. افتكرت؟"

وقبل أن يجيب.. هوت كفه الكبيرة الملوثة بالطباشير فوق خد مبروك العريض بقلم لم يكن له ما يبرره. لم يكن بحاجة للضرب ليبكي، كان يكفي وقوفه هكذا ليشعر بالحرج، حساس لدرجة لم نفهمها، وكثيرًا ما طفرت من عينيه الدموع؛ لأنه فشل في الإجابة على سؤال. كانت تلك هي المرة الأولى التي يُضرب فيها.

بعد انتهاء الحصة انفجر في البكاء بصوت عالٍ، التف حوله الفصل كله محاولين تطييب خاطره؛ لكنه ظلَّ ناظرًا للأرض شاعرًا بالانكسار. لم ينطق لنهاية اليوم، وغاب عن الحضور في اليوم التالي. عندما عاد كان هناك شيء ما مختلف به، لم نعرف ما هو دقّقنا في ملامحه، نفس ابتسامته التي تسع العالم، ولكن نظرته بدت أكبر من سنوات عمرنا القليلة. جلس مكانه وحده بجانب النافذة و لم يتحدث مع أحد. دائمًا ما يجلس وحده، ودائمًا ما ننسى أنه هناك.

"حساس زيادة"، و"مش أوي كده"؛ جاءتني من الخلف، وربما جاءته أيضًا، فازداد انكماشًا على نفسه، وصدره يعلو ويهبط بتسارع.

لم أنتبه لما حدث، و لم أنتبه أن هذه هي حصة الرياضيات. لم أنتبه للون مبروك الذي يبهت. لم أنتبه لأي شيء سوى مع: "مبروك.. فز وسمع نظرية فيثاغورث".

هذه المرة لم يقم مبروك من مكانه، لم يبتسم ابتسامته الواسعة، و لم يضيِّق عينيه كأنما يتذكر. ظلَّ جالسا كأنه لم يسمع.

"ماسمعتنيش يا بقرة"

ظلَّ جالسًا، ناظرًا للتختة أمامه، اقترب منه المدرس بكفيه الملوثتين بالطباشير "إنت مش سامع.. هه ؟" وهوت الصفعة الأولي على وجه مبروك الذي لم يتحرك، الصفعة الثانية على نفس الخدَ، و لم يتحرك، الصفعة الثالثة كانت مدوية؛ حتى أن المدرس نفسه توقف بعدها يستمع للصمت الذي أحدثته الصفعة، وعندما لم يتحرك مبروك أيضا. مشى المدرس للأمام وهو يجز على أسنانه: "ماشي.. ماشي

لم نع ما حدث، سوى أن مبروك ضرب ثانية. بعد الحصة ظلَّ جالسًا مكانه لَم يتحرك، و لم ينزل للفسحة، تركناه وهبطنا ناسين أنه بقي وحيدًا..

ظلَّ هكذا، لم يتحرك سوى في الحصة الأخيرة عندما سمعنا حشرجته ونشيجه يعلوان، نظرنا إليه بفزع، كان يتلوى مكانه وهو يلهث، ودون سابق إنذار قام بفرد جناحين عملاقين خلفه رفرف بهما قليلاً قبل أن يطير من الشباك المفتوح جانبه.

2

عندما جاءته الجلطة الأولى لم يكن قد أتمَّ الثلاثين، التاسعة والعشرين وجلطة بالقلب، أقعدته بالبيت شهورًا، وعندما تحامل على نفسه ليمشي،

كان "يزك"، يحاول أن يبدو طبيعيًا وأن لا شيء هناك.

جلطة بالقلب، علامة موت مؤكدة، لم ينتبه إليها، ولا فعلنا نحن.

كالعادة أهملناه، لم ننتبه، وتركناه جانب شباك الفصل وحده ثانية.

الجلطة الثانية طرحته تمامًا، وأعطبت نصفه الأيسر، أقعدته طويلاً ليتمكن فقط من رفع رأسه، أو حتى يحاول الكلام.

عندما أحب أحمد مبروك، أحب فتاة سمراء مثله، جميلة جمال الفجر، عيناها عسليتان، أنفها دقيق، وشفتاها منحوتتان. شعرها أسود يبدو متناثرًا تحت طرحتها غير الملفوفة جيدًا، تبدو صغيرة بجانب طوله وجسده الضخم، كانت مصدر قوته ومصدر ضعفه، عشقه وحياته.

ظلَّ رافضا أن تزوره في المستشفى، أو أن تراه وهو راقدٌ، لم يستمع لبكائها المرير في التليفون، وإن كان في كل مرة بعد إغلاق الخط في وجهها ينهار في بكاء حارق.

عندما تمكن من الجلوس، أو أن يبدو جالسًا، سمح لها بزيارته بالبيت. يبقى صامتًا، مستمعًا إليها. تحكي هي عن كل شيء، تمسك يده اليمنى السليمة، وتظلُّ ابتسامتها معلقة في سماء البيت حتى بعد رحيلها. لم تشعره إطلاقًا بأنه مريض، تتعامل معه كما كانت، وبدا أنها عشقته أكثر.

في ذلك اليوم كان يجلس أمامها، عندما قرر أنه بحاجة لأن ينام، ويحلم.

لا أحد يدري لماذا بكت هي كل هذا البكاء، لم ندرك وقتها؛ لكننا

نشجنا معها. انهارت تقبل يده اليمنى السليمة، ويده اليسرى المعطَّلة. كان نصفه الأيسر قد تعطَّل بالكامل، تهدَّلت عينه وشفته، ومال رأسه كتمثال قبيح. أشار بيده أنه يريد الكلام، خرجت منه نصف كلمات، لم يفهمه سواها، عرفنا هذا عندما هزت رأسها بشدة، وتعلقت بيمناه. عرفنا منها بعدها أنه أخبرها بأنه سيأتي إليها في أحلامها كثيرًا، وطلب منها بأنها عندما تحلم به فلتحلم به وهو سليم دون عاهات أو عطب.

كان قد تمكّن من الوقوف بصعوبة دون مساعدة، وانسحب ببطء أمامنا إلى غرفته، لينام ويحلم..

ما علمناه بعد ذلك أن أمه عندما دخلت لتوقظه لم يكن بالفراش، بحثت عنه في البيت بجنون؛ لكنه لم يكن موجودًا، وعندما عادت لغرفته، كان الشباك مفتوحًا، كانت مضاءة بضوء خافت لا مصدر له، وتفوح في الجو رائحة حلم.

حكايات قديمة

حانات النفس الكئيبة

[تبكون وتنشجون، وتظنون أن البكاء هو الحل؛ تتأرجحون في سيركم وكلامكم، تسكرون حتى تنسون أسماءكم البغيضة، تقتربون من الحافة المضيئة، ثم تجبنون وتتراجعون لتواصلوا بكاءكم المشؤوم].

الفراشات تخرج ساحبة خلفها خيطًا من الألوان، يتمدد الصمت ليشملنا بهالته الشفيفة، يخطو الوقت ببطء فنغرق في تسبيحات الجالسين. الضوء الخافت يتسرب من الحجرة المجاورة ليذوب في ظلمة مجلسنا الكبير. أتململ ثانية محاولاً الجلوس والاتزان مثلهم. أتتبع بعيني خيوط اللون المنسحبة وهي تخبو. بعض الهمسات وبعض الكلمات الذائبة في الآذان. يعود الهدوء ممتزجًا برائحة الطعام والبخور. نسمع صوت كروان عابر فتعلو التسبيحات والتمتمات الساكنة. يدخل أحدهم حاملا مزيدا

من الشموع الضخمة، يضعها حولنا فتهتز الظلال وتتداخل مخلفة خيالات عملاقة. [لأنه أنت، فأنت تعلم، ولأنه أنت ستأتي مع أنك تعلم].

المزيد من الوخز المضني بمعدتي لتتصاعد العصارة عبر حلقي لها مرارة جارفة. أحاول الانكماش في مجلسي، ترتعش يداي، فأتلفت حولي قلقًا من جديد. تذوب الموجودات حولي ببطء حتى سمعنا همهمات متصاعدة من الخارج ورأيناه يدخل كأنه يطير محلقًا اتجه لمكانه الخالي بمنتصف المنضدة الكبيرة. [تحملنا معك لعالمك الذي لا نفهمه، تدخلنا في هالتك، فلا يمسنا ضرٌ].

تتعالى الكلمات النضرة المورقة، نسمع تغريد تنفسه وابتساماته الخافتة. لا أقوى على النظر إليه، أتشاغل بالعبث بما أمامي على المنضدة ولا أتناول الطعام. أمدُّ يدي نحو إناء الماء فترتطم بإناء الملح. ينسكب ويتناثر أمامي مبعثرًا، ازداد توترًا وعصبية. يمرر دورقه الصغير لنشرب؛ الواحد تلو الآخر أتناوله بيد مرتعشة وعين غائمة. أقربه من فمي قبل أن أرفعه لأناوله لمن بعدي دون أن أشرب. [تتحمل عنا تجاربنا، وتعطينا دمك لنشرب، ولحمك لنأكل. تطلب منا ألا ننكرك، فنفعل].

أهب من مكاني ببطء، أنسحب للخارج، أتجه للحانة القريبة، أدفع الباب الخشبي الثقيل. الإضاءة خافتة متراقصة، والهواء ثقيل راكد. أجلس في الركن شبه المظلم، يقترب مني الساقي بخفة كأنه يطير.. صياح، وسباب، وبذاءات، وقهقهة عالية مقبضة.

كانت الرؤية مضببة في عيني، وأنفاسي تتلاحق. الرائحة القديمة المعتقة

تتصاعد من المكان. حامل بيده قارورة ماء كبيرة، يواصل تحليقه نحوي، يقترب لأرى وجهه الساكن الهادئ، أنتفض مكاني، يتيبس جسدي كله وتخفت أنفاسي يصب لي من قارورته في الكأس جانبي، يسيل الماء أمامي ليتحول لنبيذ في الكأس. انتفضت ثانية بعنف لأجد نفسي لا زلت جالسًا وسطهم و لم أخرج. أعيد التطلع حولي أراه ينظر لي طويلاً أتابع المزيد من الفراشات المحلقة الساحبة خلفها خيطًا هشا من الألوان. كانت الشموع تهتزُّ، وكلامهم الخافت يتصاعد بهدوء، ليخفت ثانية. تطلعت للمنضدة أمامي، كنت هنا، لم أتحرك. [يأتينا الشرير من كل صوب فتصده، تخبرنا ألا نبتعد عنك وتفتح رداءك لندخل؛ لكننا نبعد].

حديثه الخافت يأسر الأسماع، أحاول أن أسمع؛ لكن تدوي في أذني همهمات بعيدة وفحيح كابٍ مقبض. أحاول سدَّ أذني، ترتعش الشمعات الضخمة ويتصاعد مزيد من البخور.. هل أخبره؟ التفت إليّ فجأة بابتسامته العذبة المتآكلة كأنما عرف أني أريد الكلام. تغيم الرؤية في عيني وأرتجف، أنسى الحروف والكلمات. يدير رأسه للناحية الأخرى ليتركني أغرق في عرقي البارد. [تزيل عنا آلامنا وحزننا. تمسحنا بيديك فنشعر كم نحن عصاة مذنبون].

ينتظرونني ليلاً بالغابة لأدلهم على مكانه. ثلاثون قطعة فضية. يلتفت إليّ ثانية بعينه اللامعة، يحدِّق فيّ قليلاً قبل أن يواصل كلامه معهم.

هل أفعلها؟ الخمر المتصاعد لرأسي يهز الموجودات أمامي. هل شربت حقًا؟ لم أتحرك من مكاني، و لم أذهب للحانة؛ لكن الرائحة المعتقة لا زالت

في أنفي وعلى شفتي. ذهبت لهناك ورأيته. كان هو أيضا هناك. رآني وصب لي الماء ليتحول لخمر، لم أشرب فكيف أشعر به يتصاعد لرأسي. ينتظرونني وهو يعلم بأنهم هناك. لم أخبره؛ لكنه علم. نظر في عيني، ورأى كل شيء.

تزداد الهمهمات في أذني، فأهز رأسي نافضا إياها. ترتعش الشموع وتبدأ بالخفوت ناثرة رائحتها العطرية حولنا. تجفل الفراشات وتواصل سحب ألوانها للخارج. أشعر بالبرد يتسرب داخلي، يتقطع الضوء المتسلل ويتشظّى حتى يختفي. أتراجع للوراء، أرفع ردائي قليلاً محاولاً العبور للخلف، أنسحب ببطء. رآني وأنا أتراجع دون أن ينظر. أشعر بعينيه تتابعاني، أقترب من الباب المغلق كأني أسير في رمل. أشعر بالبرد يشتدُ مع خروجي. أصوات متقطعة، ودوامة متصاعدة من فحيح مقبض. أحني رأسي بشدة وأنا أسير مغمضًا عيني. أضم ردائي جيدا حول صدري، يتبعني الصوت الشائك، أمدُّ في سيري كاتمًا نفسي محاولاً الغياب، ومن بعيد تتجمع الفراشات من جديد، محلقة لأعلى، بعد أن تركت ألوانها بالداخل..

صياح أخير للديك

هل يحلم الموتى؟

هل نأتيهم في أحلامهم، فيهبُّون فزعين، ليجدوا أنفسهم لا زالوا في لحدهم المظلم الضيق؟! يتذكرون حياتهم السابقة، ويتذكرون أشياء كانوا قد نسوها.

هل يحلمون؟

أموت ثم أعود ثانية؛ لأموت بعدها مرة أخرى..

وفي كل مرة أراهم في الحلم أمامي، أراهم وأسمع صيحات ديك بعيد تدوي فأعرف أنني لم أمت، وأنني مستيقظ أهذي..

تتفكك عظامي ويسقط كتفاي، والألم العاصف ماضٍ في ارتفاعه.

الشمس تواصل وخزها لي، والعطش يلتهم عقلي، والنعيق المقترب يحوم حول رأسي.

أواصل النحيب والأنين، يتصاعد الألم فأموت، ثم أفيق لأجد نفسي لازلت معلقًا كما كنت. حلمت به مرة أخرى هذه المرة. كان يسير أمامي، وكلما حاولت الاقتراب، ابتعد أكثر دون أن أرى وجهه.

نقرة أولى فوق رأسي أعادتني للحياة. النعيق الأسود جاثم فوقي. أهز رأسي فيتشبث بمنقاره الحاد المغروز في، ينهار جسدي لأسفل، يواصل الموت مراوغته وابتعاده. يداي المعلقتان جانبي ترتعشان، والألم يمرُّ فيهما كالنار.

أتطلع حولي من أعلى، تواصل الحياة زحفها دون أن تتوقف. ظننت بأن هناك من سيفتقدني ويأتي ليبكي عند قدمي؛ أصوات الباعة والناس من السوق القريب تصل إلي، الهواء البارد يحمل لي كل همساتهم وأصواتهم وأحلامهم التي كنت أحمل مثلها، الهواء يشتدُّ، والناس يواصلون الابتعاد.

أخبرني بما سيحدث لي؛ لكني لم أصدقه. أخبرني بأني سأصلب وتأكل الطير من رأسي. هل لو عدت ثانية وأخبرته بما أراه الآن أثناء موتي هل سيفسره؟! هل سيفسر رؤيتي له كثيرًا في أحلامي دون أن أرى وجهه؟! هل سأراه في أحلامي عندما أموت؟! ظننتني منذ قليل قد متُّ؛ لكن صياح الديكة أيقظني.

ظلام السماء يبتعد، والشمس تزداد نورًا وتوهجًا. كانت قد أظلمت

منذ قليل، وكنت قد متُّ، وانتهى كل شيء. أواصل التطلع لأجد الطيور تقترب من جديد فوقي، وتهبط لتنقر رأسي المتصدع، أنتفض لأفيق وأجد نفسي معلقًا كما كنت. حلمت بما يحدث لي الآن، حلمت ـ وأنا معلقٌ فوق الصليب ـ بأنني معلقٌ فوق الصليب. ترى بماذا ستفسر ذلك الحلم لي؟

صياح واحد للديك قبل أن أشي بك. سأفعل انتقامًا منك عما سببته لي. تفسيرك للحلم هو ما صنع بي هذا. كيف عرفت كل هذا؟ كيف استطعت التنبؤ هكذا؟ أنتفض من جديد لأجدهم يشدونني للخارج لأحمل صليبي. نظرت في كفيّ، كانوا بحالتيهما، لم يُثقبا بعد، يسحبونني خلفهم، أتعثر فأهوى غير فاهم. هل لم أُصلب بعد وكان حلمًا بما سيحدث؟ يطرحونني أرضا فوق الصليب، ويدقون مساميرهم من جديد داخل كفي المفرود، أصرخ وأبكي وأتبول ألمًا قبل أن تؤلمني رأسي فأنتفض لأجد الطيور تتجمع حول رأسي المتدلي أمامي. كنت ميتًا منذ قليل وحلمت بهم يصلبونني مرة أخرى، كنت أنشج وأهذي وأرتعش.

هل يحلم الموتى بكل ما مروا به في حياتهم؟ هل تأتيهم كوابيس بما فعلوا وبما قد فعل بهم؟ هل سيظل حلم الصلب مستمرًا هكذا للأبد؟ أسمع من جديد صيحة خافتة للديك، أتطلع لأجده أمامي فأحاول أن أسير خلفه، يبتعد عني ليذوب بعيدًا، فيأتون من كل صوب ليمسكوني ويقوموا بسحلي خلفهم. أصرخ وأبكي وأتبول وأنا أعلم ما سيحدث مرة أخرى. أحاول المقاومة والهرب؛ ضرباتهم تزداد عنفًا، والصليب يزداد قتامة وتلوثًا بالدماء. يدقُّون مساميرهم فأنتفض، وأتقيأ من فوق صليبي

المرتفع. الشمس ترتفع ببطء من خلف التلال البعيدة وهواء الصباح البارد له رائحة نفّاذة.

كنت جانبي بالسجن ونحن ننظر من النافذة الضيقة ذات القضبان على الشروق البعيد والصليب المنصوب بأسفل. تخبرني بتفسير ما حكيته لك، تنظر لي من أمام النافذة فيرتطم بعيني نور الشمس ولا أرى وجهك أبدًا؛ فقط أسمع الديك وهو يصيح من الخارج فأعب من الخمر الرديء حتى أنام لأستيقظ واجدًا نفسي معلقًا فوق صليب للمرة الألف في ذلك اليوم، أغمض عيني متظاهرًا بالموت فأراك تسير أمامي متجهًا نحو ضوء عظيم. لن أسير خلفك تلك المرة. أتوقف مكاني فتستدير لي دون أن أرى وجهك ككل مرة، تشير لي، فينقضُّون عليّ قبل أن أتبعك، ويسحبونني بعيدًا عنك.

في الزنزانة الرطبة ألوذ بالصمت، أتكور حول نفسي بعيدًا عنك، مغلقًا كفي جيدًا أمام صدري. الرؤية المضببة المتقطعة تتراقص أمام عيني وآلام الصلب تذيب عقلي. أشعر بالطيور تحلّق حول رأسي فأهزُّها مبعدًا إياها عني، ما تفسير ذلك؟ هل أحكي لك من جديد؟ أنظر نحوك مرة أخيرة مجبرًا نفسي على ابتلاع رؤيتي، أستدير ببطء موليًا إياك ظهري ناظرًا في الحائط الرطب، أسمع من بعيد صياح الديك المتحشرج، تفسر ببطء للآخر حلمه. أغمض عيني بقوة كي لا أسمع، محاولاً نسيان حلمي ونسيان الكلام، تخبره بما سيكون، تصمت قبل أن تسير نحوي بهدوء، أسمع خطواتك الخافتة، تضع يدك فوق كتفي وتهزني، لا ألتفت، أواصل

تظاهري بالموت، أرتعش وأنشج، أتبوّل قبل أن تهمس لي ـ دون أن أحكي لك شيئًا ـ بكل ما لم أرد سماعه..

الإغواء الأخير لرجل عادي

أواصل الدق منذ الأمس ليكون الخشب ناعمًا يليق بي وبه..

قنينة الخمر بجانبي أوشكت على الانتهاء، أشرب منها ليسيل ما يسيل على ذقني وملابسي، أسكب بعضًا منها فوق الخشب أمامي، يتشربه الخشب سريعًا لأواصل الدقَّ فوق ما سكبت.

أبعد الشموع الضخمة قليلاً من أمامي، ظلالها تتراقص مخلفة خيالات ضخمة حولي وينعكس نورها المتلاعب على الدراهم الذهبية الكثيرة الملقاة بين نشارة الخشب. أتحسسهم قليلاً لأتناول وعاء الخمر وأعب منه ما أستطيع.

ترتعش يداي، بالكاد أستطيع الدقَّ..

هذه المرة هم لا يريدون عارضة أفقية فقط، يريدون صليبًا كاملاً

ضخمًا. كل مرة كنت أصنع لهم عارضة أفقية كبيرة ويقومون هم بتثبيتها على أية شجرة أو رافعة قديمة. تلك المرة يريدون واحدًا جديدًا ضخما، وثقيلاً.

يحكون بأن أحد أجدادي البعيدين قد صُلب. كان محبوسا مع نبي تنبأ له بأنه سيصلب، وتأكل الطير من رأسه، صُلب بالفعل. يتحدثون عن لعنة أصابت أبناءه من بعده، صُلبوا بالكامل جيل من وراء جيل. أتقن ابنه الأصغر صناعة الصلبان لينتقم لأبيه. يقولون بأنه قد صُلب على صليب من صنعه هو

توارث أبناؤه اللعنة كما توارثوا صناعة الصلبان.

أتناول وعاء الخمر الموشك على النفاد. يقولون بأنه قادر على تحويل الماء لنبيذ. الكثيرون رأوه وشربوا من بين يديه. صياح الديوك بالخارج ينبِّئني بيوم جديد. يوم أخير للانتهاء مما أصنع. أشرب من وعائي حتى أدوخ. لم يُفرغ بعد، لم يفعل منذ الأمس، ولن يفعل حتى انتهي.

أخبروني بأنه الصليب الأخير الذي أصنع، وبعدها لن يحتاجوا إليها ثانية. ذهبٌ كثير وخمرة كثيرة لا أدري أين ذهبت. أواصل مساواة الخشب وتشذيبه. أصنفره وأنا أدقُّ عليه حتى يستوي.

الظلال تتضخم حولي، تتلاعب في الحوائط وتهجم عليّ، أزيحها بيدي وأنا ألوِّح بالمطرقة، وبسرعة أتناول الوعاء الممتلئ لأشرب منه حتى أرتوي. تخفت الظلال لأسمع صليل الدراهم يأتي من كل مكان. أدقُّ بقوة وأنا أجز على أسناني، أشعر بالعطش. لم أجد ماءً بالأمس لأشرب؛

فقط الخمر، كثير من الخمر أبحث عن الماء بلهفة، أشعر بالعرق يغمر جسدي ويبلل ملابسي الثقيلة. أتجرد من إزاري الطويل، أحكّ ذقني وشعري، أمسك بالوعاء الضخم، أسكبه فوق رأسي، يسيل الخمر على جسدي ساخنًا ليزيد من إحساسي بالحرّ اللاهب.

لو كنت أستطيع الخروج للنهر ذلك الذي سار فوقه دون أن يغرق.

سار فوق. الماء.. دون. أن. يغرق.

لا، لن أذهب لذلك النهر، لن أخرج، سأواصل عملي بسرعة حتى لا أُجلد. سأنتهي وأقبض باقي أجري؛ الكثير من العملات الذهبية، لم أحصل على مثلها من قبل، و لم يفعل غيري. سمعت أن الكثيرين رفضوا أن يصنعوا ذلك الصليب عندما علموا أنه له. تمَّ جلدهم. أعرف؛ لكنهم رفضوا وتمسكوا بالرفض. كان نجارًا هو أيضا، ماهرًا كما عرفت يصنع الموائد والمقاعد العالية؛ لكنه لم يصنع صلبانًا قطّ. أنا فقط من أصنع، ولا أصنع غيرها. المكان حولي مظلمٌ كئيب. أشعل المزيد من الشموع. لم تعدْ الشمس تدخل المكان منذ زمن. أفتح الشباك العالي والباب الكبير ليظلَّ المكان مظلمًا كما كان فأغلقها هربًا من أعين الناس المتطفلة.

أتناول وعاء الخمر لأشرب ما فيه. يقترب الوقت و لم انته بعد. أضع القائم الطويل أرضا. يزيد عن ضعف طولي. أحمل العارضة الأفقية لأضعها في القائم من أعلى. لا أعلم كيف سيحملها من سيحملها. أثبت العارضة جيدًا في الثلث الأعلى من القائم، تقريبًا انتهيت.

أبتعد قليلاً للخلف لأنظر لما فعلت. الشموع تتراقص فيتلاعب الظلام حولي ويبدو الصليب أكبر حجمًا مما عليه. اقترب منه ثانية، أنحني عليه. أقوم بتحسسه برهبة. الخشب بارد جدًا، وملمسه خشن. أقترب منه أكثر، أخلع النصف الأعلى من ملابسي. الظلال تتزايد. أنام عليه بظهري، أضع رأسي أعلى القائمة؛ كتفي وذراعي على العارضة العريضة، أغمض عيني وأنا أتخيَّل ما سيحدث لمن سينام مكاني، أنتفض بسرعة، أزحف نحو الضوء وأنا ألهث. أتشبث بالمنضدة العالية لأقف، فتميل عليّ وتهوى ليسقط ما عليها من نشارة خشب، ودراهم تتناثر بطول المكان، تسقط شمعتان فوق الخشب، أحاول إطفاءها بهلع، ينسكب فوقها دورق الخمر الممتلئ. اللهب يتصاعد. أعدو صارخا محاولاً الخروج من المكان، أتعثر في الصليب الضخم، أهوى عليه، أحاول الزحف، لكنني لا أجد قدمي. الدخان يعمي عيني وصدري. أنبش في الخشب بأظفاري، أحاول النهوض من جديد. شيء ما يمسك بي. أواصل النبش والحفر بطول الصليب، يتسع مكان صغير في الخشب، أتناول إزميلي الملقى على الأرض، أحفر به سريعا، تتسع الفتحة وتكبر النيران، تعلو أكثر، أندس في الصليب بقوة محاولاً الاختباء. أحشر نفسي داخل الفتحة التي صنعتها، وأدفع نفسي بقوة للداخل، أشعر بنفسي أدخل ببطء.. يتسع الصليب حتى يحتويني، ينفتح ببطء حتى أدخل. أواصل الدفع المجنون للداخل.. أدفع، وأدفع حتى أدخل بالكامل، أشمُّ رائحة لحاء الخشب، ألمح من الفتحة الصغيرة النيران بالخارج تقترب.

اللهب يعيد تشكيل الصليب وأنا داخله. يقوم بإغلاقه ثانية بإحكام.

رأسي في أعلى القائم من الداخل، وذراعاي مفرودان جانبي بطول العارضة؛ فتحة صغيرة جدًا باقية لألمح منها النيران وهي تخبو وتنطفئ. علمت ما سيحدث، حاولت الحركة؛ لكنني فشلت. أسمع صوت طرقات على الباب. صيحات عالية، صرخات باسمي. الطرق يتعالى. يكسرون الباب، يدخلون بأجسادهم الضخمة وأسلحتهم البراقة، يتلفتون حولهم، يبحثون عني، يتطلعون للصليب الموضوع بالأرض، يعيدون التطلع للدراهم المتناثرة والمنضدة الساقطة وآثار الحريق. يشير لهم قائدهم بأن يحملوا الصليب وهو يتمتم بكلمات لم أسمعها، أحاول الحركة من جديد والصراخ، أحاول ضمَّ ذراعيَّ جانبي؛ لكنني أفشل. يحتويني تمامًا ويضمُّني داخله. أشعر بهم يحملوني بالصليب ويسيرون، أحاول أن أتحرك وأن أخرج. يسيرون كثيرًا قبل أن يلقوني أرضًا، لألمحه عبر الفتحة الصغيرة بعين غائمة عن كثب، يقترب مني بوجه دامٍ، مكللا بتاج من الأشواك..

طوف

أجري كما لم أفعل من قبل. التراب الملتهب والحصى الحاد يأكلان قدمي؛ لكنني أواصل الجري، أواصل القبض بكلتا يدي على قطعة الخشب العريضة التي أخذتها من مخلفاته. البرد يشتدُّ، والسماء تواصل إظلامها قبل الميعاد. سحب كثيفة ابتلعت الشمس، وتركت بالسماء خطوطًا رمادية داكنة. وهواء بارد له رائحة البلل.

أتلفت ورائي لألمحهم عبر بعد يواصلون الركوب. سلم خشبي كبير يأخذهم للداخل. يغيبون داخلها ليأتي منهم المزيد. أزواجًا أزواجًا، وحولهم يتحلق رجاله يحاولون الإسراع.

أنا أيضا أعدو بسرعة محاولاً الوصول للجبل الضخم أمامي، أتعثر، أهوى وسط الحصى الخشن، يرتطم وجهي بالخشبة الكبيرة في يدي،

أشعر بجرح أعلى جبهتي، أمسح الدم بكفي وأنا أنهض مواصلاً الجري المجنون..

أسمع فجأة الرعد يضرب السماء. لم يكن واحدًا، عشرات الرعود تنفجر متتالية، لم أسمع مثلها من قبل. كان صادقًا على ما يبدو

لو عدت، هل سيأخذني معه ويتركني أركب؟

لن ألحق، فالمطر بدأ بالهطول. نفسي يتقطع، ورائحة التراب المبلل تتصاعد بكثافة.

أخلع إزاري الطويل وأتركه يسقط وسط البلل المتكاثر، ترتطم قدمي بالماء الذي يتزايد، أعيد التطلع للخلف لأراهم من بعيد يسحبون السلم للداخل، ويغلقون الباب فتنغلق عليهم الدائرة المكتملة. الماء يهوى لينزلق عليها ويتجمع تحتها. أتعثر ثانية لأشعر بطعم الماء الممتزج بالتراب يغلق زوري، أتنشقه غصبًا، وقطعة الخشب الثقيلة تنفلت من يدي لتعوم وحدها بعيدًا. أقف وأنا أرتعش. الهواء أصبح شديدا مع إظلام السماء المبكر.

الماء يرتفع ليصل لركبتي. أتقدم بذعر لأمسك بالخشبة من جديد، أقبض عليها بقوة. الجبل يدنو مني. أشعر بالبرد يرعشني. أحاول العدو وسط الماء المتزايد. برق يضيئ العالم حولي ثم سيل من الانفجارات ألقتني على وجهي مرة أخرى؛ ليتني عدت وركبت معهم. أقف مترنحًا. أمسك بالقطعة الطافية أمامي وأتقدم محاولاً العدو وسط الماء المرتفع بسرعة رهيبة، يصل لأسفل صدري. أمتار ليست بالكثيرة تفصلني عن الجبل.

الهواء يدفعني للأمام فأحاول التوازن داخل الماء البارد. الرؤية تتقطع مع تقطعات الرعد؛ لكنه يعود لينير ما حولي.

هم بأمان الآن داخل دائرتهم المغلقة. ليس هناك بلل ولا برد. أرتعش غصبًا عني، والصقيع يمنعني عن التفكير المياه ترتفع والحركة تزداد صعوبة. أضع اللوح أمامي وأصعد فوقه. أستلقي عليه بالكاد يسعني. الماء يفور ويتحرك عاليًا كأنما يصعد من الأرض. تموجاته تدفع بالخشبة للأمام فتتقدم ناحية الجبل المظلم. ألمح السيول وهي تنهمر من ممرات الجبل العالية، أدفع بيدي في الماء، لأحرك الخشبة للأمام. أخلع باقي إزاراي الطويل وأقوم بربط نفسي بقطعة الخشب، التي تتقلب يمينًا ويسارًا. تصطك أسناني بعنف، أقترب بسرعة من الجبل. سأصعد عليه لأستريح ثم أواصل طوفي بقطعة الخشب هذه.

أصبح البرق متواصلاً ومصاحبًا للرعد الرهيب. الماء يرتفع بسرعة غريبة يخفي أسفله كل شيء. ألمح جانبي بالكاد رؤوس النخل تظهر بصعوبة أسفل الموج. كل البيوت والناس قد غمروا بالماء. تنقلب الخشبة فجأة فأهوى داخل المياه، أحاول التخلص من الرباط الممسك بي. أشرب الكثير من الماء، أفكه بصعوبة لأصعد بسرعة ممسكًا بطرف الخشبة. أرى جبالاً من الموج حولي في كل مكان. أستجمع باقي قوتي وأصعد ثانية فوق ظهر الخشبة المتأرجحة بجنون. الماء يتلوّن مع البرق ويلقي ظلالاً رهيبة. أحاول التنفس بصعوبة، أقترب جدًا من الجبل، ترتطم خشبتي بجزء غير ظاهر منه فأنقلب من جديد. أغوص تحت الماء فأشعر تحت قدمي بأرض صلبة.. الجبل! وصلت له أخيرًا.. أحاول الوقوف، أدفع

نفسي قليلا للأمام، فأتمكن من الوقوف فوق الأرض، أتقدم بسرعة، أسحب خلفي قطعة الخشب الثقيلة. مستوى الماء ينخفض مع تقدمي. أجاهد للتقدم. الماء ينخفض أكثر، البرد يكبّلني ويشلّ حركتي مع ملابسي المبلّلة. أقاوم وأتقدم ووعيي يتسرب منّي، أشعر بالصقيع يتسلل لعقلي ويعصره بيد جبارة. أخرج من الماء، أجد جدارًا مرتفعًا، أقوم بالاستناد إليه، أحاول التنفس بعمق، يدخل الهواء باردا حادًا يزيد ارتجافي، أقوم بالالتفاف حول الجدار لأجد مدرجا منحوتا لأعلى، أصعد عليه بسرعة، أقوم بالتهام الدرجات الصاعدة، أترك الماء المتزايد خلفي وأقاوم المنهمر من أعلى. أصعد وأصعد حتى تخذلني قدماي فأهوي أرضًا محاولاً ألا أغيب.

دقائق من مقاومة البرد والظلام والماء المنهمر أزحف بصعوبة لأدخل في شقٍّ صغير خلف الدرجات المنحوتة وأقوم بسد المدخل بخشبتي المبللة العريضة.

لا أدري كم غبت؛ لكنني أفقت على تسرب الماء من كل مكان يحيطني من جديد في مخبأي الصغير الخشبة طافية جانبي، والماء يتسرب لداخل عظامي. أهبُّ مرة أخرى، أخرج. كان الظلام حالكا. المطر مازال يهطل. أتحسس بصعوبة لأصل للدرجات؛ أصلها قبل أن تغمر تماما. أواصل الصعود بسرعة محاولاً نسيان الهواء البارد وملابسي المثلجة. تركت الماء خلفي بمسافة وأكملت صعودي. عاد البرق وانتهت الدرجات لألمح أمامي مساحة خالية ثم باقي الجبل الوعر. اقتربت منه، ألقيت قطعة

الخشب لأعلى ثم تشبثت لأرفع نفسي. اتجاه الهواء يمنع عني المطر قليلا في ذلك المكان، واصلت التسلق بسرعة. آلام كتفي أصبحت رهيبة، والتعب يُعمي عيني. بضعة أمتار وأصل للقمة العريضة، أتسلق بصعوبة ثم أميل بجذعي لأسحب الخشبة المسنودة بأسفل. دنوت من القمة، تقدمت للأمام. آخر مرتفع ثم أصبح فوقها. كانت الحافة غارقة والماء يسيل منها بغزارة عبر الحافة المائلة للأمام. أميل برأسي من الناحية الأخرى لأرى عبر البرق، الماء وهو يصعد بسرعة خلفي.

لم أعد أشعر بالبرد؛ فقط تعب شديد وإرهاق رهيب. دنوت من جزء مرتفع من الحافة. صعدتُ عليه، جلست وأسندت الخشبة جانبي. المطر يزداد حولي، وصوت الماء المرتفع من أسفل يصلني بسرعة. حط ظهري للوراء قليلا، وضعت رأسي على الأرض المبللة، أغمضت عيني لأرى ظلامًا متقطعًا، شعرت بالماء يصل للقمة، نهضت من مكاني، وضعت الخشبة على الأرض أمام الحافة المائلة، جلست عليها ممسكا بجنبيها، نظرت حولي، ابتسمت بهدوء والماء يتسرب بسرعة أسفل مني حاملا معه الطوف للأمام خارج قمة الجبل المغمورة. مسحت وجهي بيدي وأعدت التشبث من جديد وأنا أسحب نفسًا عميقًا وأبدأ بالتجديف نحو الظلام المبلل.

حظر

حظر

علم أنها ليست موجودة عندما عاد من الخارج، وعدَّ أحذيتها فوجدها تنقص زوجا.

1

الثانية عشر ليلاً لم تتوقف الأمطار منذ الأمس. الثانية عشر ليلا ميعاد تطبيق الحظر كنت قبل المنزل ببنايتين عندما أوقفتني نقطة التفتيش. تنزلق السيارة قليلاً فوق الوحل قبل أن تتوقف أمام الحاجز الحديدي العريض. يشير لي الضابط المتوقف تحت الأمطار بفتح الزجاج. الهواء البارد يصفع وجهي ويتسرب لملابسي شبه المبللة.

أتطلع إلى وجهه المنحوت وهو يقترب؛ وجه إغريقي بلا أي تعبيرات،

أنف مستقيم، وشفاه رفيعة مشقوقة، وشعر ناعم ألصقه المطر بجبهته. لم يكن هناك غيره بالكمين، والضابط المألوف لي لم يكن هناك. شممت عطره يقترب معه عبر المطر المتدفق.

ما أن اقترب من الشباك المفتوح حتى مال نحوي، واقتحمني بعطره، وبابتسامة عريضة قال: "أمطار بوهيمية.. هه؟"

استوقفتني الكلمة فنظرت إليه، كان صوته قوي وبارد.

"ساكن هنا؟" وأشار تحديدًا نحو عمارتي، فهززت رأسي إيجابًا. ظلّ متطلعًا إليّ قليلا والهواء المبلل يصفع وجهي.

"تمام"؛ قالها وابتعد نحو الحاجز ليفتحه. مررت بالسيارة ببطء جانبه، وابتسامته الباردة تتسع. ركنت السيارة، وعندما هبطت نظرت خلفي لكنه لم يكن هناك.

2

كانت عيناها تشعان بشبق غريب عندما عادت.

تشع رائحة مطر مبللة وملابسها ملتصقة بشكل مثير تطلعت إلى الظلام المتسرب من النافذة، سألتها ببطء: "كنتي فين؟"

اتجهت مباشرة نحو الدولاب وفتحته، وأجابت: "بره"

المطر لم ينقطع منذ يومين. يسيطر على الفراغ المحيط فوق المدينة، ويتسلل ليحتل الشوارع والطرقات.

بره؟!"

كانت قد خلعت معطفها الخفيف المبلل، وقميصها الأبيض الشفاف؛ أجابت:

"آه.. بره"

تطلعت إلى كتفيها المستديرين اللامعين، وحمالة صدرها الصغيرة المشدودة، وصدرها البض الناهد.

"في الجو ده؟! وبعدين أنا كمان كنت بره وما شوفتكيش

دلّكت شعرها المبلل بيدها بقوة وهي تبتسم وتشير برأسها المائل نحو الشباك المغلق:

"أمطار بوهيمية.. هه؟"

تدخل للحمام دون أن تضيء النور، ثوان وأسمع صوت المياه المنهمرة من الدش، وهي تهوى عليها.

3

كان الفجر يلوح في الأفق، والأمطار مستمرة بالهطول. أخطو فوق الأسفلت البارد المبتل. أبتعد عن مدخل البناية المظلم قليلاً، أسير تحت المطر المنهمر، أمر بجانب السيارة المتوقفة جانب الرصيف وأتجاوزها.

الهواء البارد يجتاحني. أرتعش قليلاً وأنا أتقدم من الكمين المنصوب

جانب المنزل. ألمح الضابط وحيدًا كما هو بجانب الحاجز الحديدي تغمره الأمطار تمامًا، أشمُّ عطره عن بُعد. ملامحه مستترة بالمياه والظلام الذي لا يزال. ثابتًا في مكانه لم يتحرك. اقتربت منه أكثر، فأدار إليّ وجهه الخالي من التعبيرات، يعيد بأصابعه الطويلة الرفيعة شعره للوراء. خطوتان وسط المياه وأتوقف أمامه. ينظر إليّ بلا صوت. أنظر في عينيه الباردتين وبصوت بارد مبتلّ أقول: "أمطار بوهيمية.. هه؟"

يظل متطلعًا إليّ لثوان قبل أن يتراجع ببطء بابتسامة ميتة وهو يزيح لي

اختفاء رجل وحيد

لم تكن أولى حالات الهياج التي تنتابه، لكنها كانت الأعنف. يظلُّ يصرخ وهو يشقُّ ملابسه إلى أن يهدأ ونستطيع الإمساك به. تلك المرة فشلنا حتى في الاقتراب منه. كان عنيفًا جدا، ممسكا بالمقشة الضخمة بيديه، مطوحًا بها في وجوهنا. يلف ويدور ويصرخ. يسبنا ويسب أمهاتنا وأمهات البلد "الوسخة"

نسمع دبيب أقدامهم الثقيلة تقترب بسرعة، يقترب منه أحدنا فترتطم المقشة بوجهه ويسقط أرضًا. نحاول الاقتراب منه وإمساكه قبل دخولهم، لكننا نفشل. صف طويل منهم ينقسم لطابورين يقفان خلفنا قبل أن يومئ لهم الضابط بجانبهم فيقتحموا دائرتنا بعنف، وينهالون عليه بعصيهم السوداء المؤلمة؛ يحاول المقاومة. يلفُّ ويضرب بالمقشة رأس أحدهم فتنكسر فوق خوذته السميكة. ثوانٍ ويسقط أرضا متأوهًا. يلتفون حوله،

يضيقون حلقتهم وهم يواصلون ضربه العنيف. يحاول المقاومة قليلاً، قبل أن يغيب تاركًا إياهم يفعلون به ما يريدون.

غاب لشهر بالحبس الانفرادي؛ عندما خرج كان قد ازداد نحولاً وصمتًا. ينظر إلينا كأنه نسينا. نظرته حادة متفحصة، لم يجرؤ أحدنا على الكلام معه. انتحى جانبًا دون صوت واستلقى موليًا إيانا ظهره.

في الصباح، وفي ساحة السجن عاد كما كان مع مزيد من العنف والقوة. كان يحتك مع الجميع. يبحث عن شجار مجاني، ينفث به عما يشعر أخرج فجأة عصا خشبية طويلة وسميكة. لا ندري من أين أحضرها، وبدأ في الصراخ والسباب. يطوح بها أمامه، فيتفاداه الناس. نوبة أخرى دامية تستعد.

يتجمع الكل حوله في دائرة واسعة، يلف هو في مركزها وحده وكالعادة يسبنا ويسب البلد الوسخة، يتحرك فتتحرك الناس معه متفادية هياجه. عندما رأينا النزيف من أنفه قررنا إمساكه. دون كلام اقتربنا منه جميعًا، وفي نفس اللحظة قفزنا فوقه. جسده ضخم وقوي، وهياجه أعطاه قوة هائلة. سقط أرضا، وسقطت العصا من يده، وسقطنا فوقه وحوله. يتملص، فنتكاتف لتثبيته، يحاول الوقوف، يسب ويزوم والعرق يتناثر من رأسه. ملابسه ممزقة، والعروق تنفر من رقبته وجبهته. أحدنا يصرخ فيه بقوة "سمي الله.. سمي الله" يواصل صراخه ومقاومته. استطاع تحرير

إحدى رجليه ليرفس بها الناس حوله. يتطايرون، ويحاولون تفادي ركلته الهائلة. أحدهم يقفز لإمساكها، تبعه آخر

هدأ قليلاً وإن ظلَّ يزوم ويتمتم، ينتفض ويرتعش، وعيناه تغيبان في الفراغ. نغسل له وجهه بزجاجة ماء. توقف نزيف أنفه وهدأت ارتعاشاته المتتالية. كنا نعلم أن هذه المرة هي الأخيرة له. لم نتكلم و لم يعلّق أحدنا على شيء؛ فقط تمتمة خافتة: "لا حول الله"، وأصوات أخرى لا معنى لها. لن يعطوا له فرصة أخرى. ثلاث مراب من قبل وتلك الرابعة. كل مرة يعقبها حبس انفرادي؛ أما تلك المرة، فنحن نعلم ما سيحدث بعدها. كان قد أغمض عينيه كأنه نام. عندما أتوا تلك المرة كان ممدًا، وجاهزًا للحمل مباشرة. لم يفتح عينيه، و لم يقاومهم.

تلك الليلة ظلت صرخاته تتصاعد طوال الليل. لم ننم؛ ربما دمع أحدنا، ونشج في صمت. لم يجرؤ أحدنا على التفكير فيما يفعلونه به؛ لكننا كنا نعلم دون أن نتكلم أن القادم سيكون أسوأ.

بعد اختفاء أسبوع، أعادوه. ظهر فجأة في الساحة المشمسة بين الغبار. لم نعرفه.. ظللت أدقق في وجهه لأتأكد بأنه هو، ازداد نحولاً عرفته عندما بدأ بالصراخ والسباب. هذه المرة كان يسب البلد الوسخة وحدها. يخلع النصف الأعلى من ملابسه ويسحب من بنطاله عصا سوداء كبيرة خاصة بأحد الجنود، لوح بها قليلاً، وضرب بها أحدنا قبل أن

نبتعد عنه ويولينا هو ظهره متطلعًا لمدخل الساحة. كانوا قادمين. أقدامهم تهز الساحة. صمتنا كلنا. لا صوت سوى أقدامهم الآتية وبنفسه المتصاعد بلهاث عنيف. يقف ليواجههم وحده. اقتحموا الساحة بأعداد كبيرة دون ترتيب. دخلوا جريًا نحوه. لم يستطع استخدام عصاه، لم يجد الوقت ليفعل، تكالبوا عليه بأعداد لا حصر لها، انكمشنا للخلف تاركين إياهم يسحقوه، يزداد عنفهم وضربهم، تصاعد الغبار كثيفًا لأعلى، توقفت حركتهم فوقه. كانوا يملأون نصف الساحة، عندما أشار لهم الضابط أن يهبوا من فوقه لإحضاره. ظللنا نتطلع إليهم وهم يبتعدون وينسحبون واحدًا تلو الآخر يبحثون تحتهم بدهشة. انتظرنا أن نراه أو نلمحه ممددًا أو محمولاً؛ لكنه لم يكن موجودًا. كان قد اختفى تمامًا مخلفًا عصا سوداء مكسورة وبعض الأنين المتلاشي..

أشياء لا يمنعها الحظر

يتقيأ من جديد بين قدميه، وهو يحاول إبعاد القيء عن قدمي طفله بجانبه. اهتزاز الأتوبيس المتواصل، يبعث بمزيد من العصارة لشفتيه الملتهبتين.

يربت ابنه على كتفه بكفه الصغير فيرغم نفسه على الابتسام. النافذة غير المغلقة جيدا تسرب له هواءً باردًا حاد الرائحة. يتطلع للخارج ليرى سحب الدخان، واللون الرمادي في الأفق. سحب داكنة تظهر من خلف الدخان الكثيف، وأصوات بعيدة لرعد ينذر بالمطر

(إنت واخد الوله، ورايح على فين؟).

(إنتي كمان لازم تيجي معانا).

(مش هاسيب البيت، إنت عارف، واتكلمنا في الحكاية دي مية مرة).

(لازم نتحرك دلوقتي.. لازم تيجي، علشان خاطره مش علشان خاطري).

تنظر للصغير قليلاً، قبل أن تشيح بوجهها جانبًا.

يمد يده المهتزة ليمسك بيد ابنه فيجدها باردة مرتعشة. ينظر له ليجده شاحبًا كما كان. دموع بعيدة تستقر داخل عينيه دون أن تسقط. ينشج ببطء محاولاً ألا يُسمع أبيه. لم يجد كلامًا ليطمئن به ابنه، أكمل الضغط على كفه الصغير، والبرد يتسرب ببطء ليحتل ذاته كلها.

(إنت السبب.. إنت السبب في كل اللي بيحصل دلوقتي).

ينظر من النافذة المفتوحة للأفق الداكن، وهو يردد مذهولاً

(أنا؟).

(آه إنت، كل اللي بيحصل ده بيحصل بسببك).

يظل ناظرًا إليها في ذهول فاقدًا القدرة على الكلام.

يبحث في جيوبه من جديد، يحتاج لسيجارة بجنون. اعتاد ألا يدخن

أمام ابنه؛ لكنه إن وجد واحدة الآن فسيدخنها أمامه ومن الممكن أن يجعله يدخنها معه. يواصل البحث وهو يعلم أنه لن يجد.

(برضه مش هاتيجي؟).

على باب المنزل المفتوح والهواء البارد العاصف يجتاحه.

(لأ) وهي تحتضن طفلها بجنون..

مزيد من القيء، ومزيد من النشيج والدموع. "الأتوبيس يواصل الاهتزاز فيتناثر القيء على ملابسهما. لا يهتم تلك المرة في إبعاد فمه المفتوح بعيدًا، ولا يهتم طفله الصغير برفع قدمه أو التربيت على كتفه الناحل.

(إنت السبب، لو مكنتش نزلت واتأخرت تحت، كان زماننا مشينا من مدة).

(طيب مالـه فيه وقت).

(لأه.. مفيش خلاص).

(لـه فيه).

(الحظر هيبدأ كمان ساعة، ومفيش حتة نروحها، وقت ماتحب ترجع البيت، ابقى ارجع. أنا قاعده فيه ومش هاخرج).

(المشكلة بجد إنه مش هايكون فيه بيت لو رجعت).

الناس داخل الأتوبيس يزدادون انكماشًا وصوت بكائهم يعلو السماء تُسرع في إظلامها، والأتوبيس يواصل زحفه المهتز في أضواء الغروب الكابية.

ينظر للخارج، وهو يرتجف. أضواء البرق تنير ظلمة السماء لثوان قبل أن يهوى الرعد لينفجر فوقهم تمامًا. ينتفض ابنه صارخًا والاتوبيس يهتز بجنون. يتلقف ابنه في حضنه وهو يضمه بشدة هامسا في أذنه الصغيرة:

"شششش. ماتخفش

ينظر له الصغير من بين دموعه الصامتة، فيكمل. "ماتخفش، أنا معاك ومش هاسيبك" يحاول بيده المرتعشة مسح الدموع من وجه ابنه. انفجار آخر من السماء، شعر به قريبًا جدًا هذه المرة. نظر من جديد للخارج، كانت الأضواء خافتة للغاية. لمح قطرات صغيرة تتساقط بالخارج. نظر لأعلى قليلاً، وهو يسمع صوت نقر المطر المتواصل فوق السقف ثم مال على أذن ابنه وهمس من جديد:

"إنت معايا، مش عاوزك تخاف من حاجة خالص، مش هاسيبك، ما تخفش. إنت راجل وهتفضل ماسك في إيدي وماتسيبهاش. اتفقنا؟".

هز ابنه رأسه في ارتعاش.

"يالا بينا"

هب من مكانه حاملاً ابنه. لم يعرف ما إذا كان يرتعش أم أن الأتوبيس هو الذي يعرج؛ لكنه كان يترنح. اقترب من السائق محاولاً التماسك. أنزل ابنه واوقفه جانبه أمام الباب الأمامي. خلع سترته ووضعها فوق رأسه وكتفيه الصغيرين. قبض بقوة على كفه البارد الصغير؛ ينظر له السائق في مرآته المهتزة بنظرة ميتة، فأومأ له برأسه ببطء وهو يشير للباب المتصدع زجاجه. يسمع النحيب خلفه يزداد.

يقبض بقوة أكبر على يد ابنه. يبطء الأتوبيس قليلا، ودون أن يتوقف يفتح الباب، فتقتحمه دفقة باردة من هواء مُجمد له رائحة مقبضة. يخطو على أولى الدرجات للأسفل وهو يرتجف، ينظر لابنه خلفه فيجده قد خبأ وجهه كله داخل السترة الكبيرة. يمد يده ليمسك بكفه الأخرى بقوة وهو يهبط للدرجة الثانية، وقبل أن يخرجا من الباب المهتز بدأت الأمطار الداكنة في التساقط داخل الأتوبيس من السقف المتآكل، الذي لم يعد موجودًا.

خلوة

أخبرها بأن الاتفاق قد تم، وأنها تستطيع تنفيذه الأسبوع القادم.

أن تزور زوجها في السجن، وأن تتم الخلوة الشرعية.

الدش الساخن يختلف تلك المرة، عندما تأخذ دشًا لذلك الأمر فلابد وأن يختلف.

تظل تحت الماء طويلاً، والبخار يتصاعد للامكان، زيت الزيتون الذي تدهن به جسدها كله، مزيل العرق تحت الإبطين، والعطر متوسط الجودة الذي تسكبه على جسدها المنحوت.

ظل المحامي متطلعًا إليها طويلا بعد أن أتم كلامه.

"ساعة واحدة بس تهز رأسها..

ساعة واحدة" تواصل هز رأسها، ويواصل هو بلع ريقه، وعيناه تواصلان التحديق فيها.

"كل حاجة هتكون جاهزة هناك، أنا رتبت كل حاجة، كل اللي عليكي إنك تروحي بس

أنفاسها تتلاحق، والعرق المتزايد فوق شفتيه تكبر قطراته.

يتطلع إليها وهو يتخيل ما ستفعله هناك.

كان سؤاله عن العيال باردًا لا معنى له.

يواصل التحديق فيها وفي شعرها الأسود الملموم خلف رأسها، جلد ذراعيها اللامع، وعطرها ـ المفضل له ـ الذي يفوح.

تجلس جانبه على دكة خشبية. "إحلويتي"؛ يقولها وهو يمسك الفرخة بيديه الاثنتين، يقسمها لنصفين، ويقرب أحدهما لفمه الكبير ذي الشارب.

يقضم قضمات متتالية وهو يقترب منها ببطء، تظل ناظرة إليه دون كلام. تتأمل وجهه المرهق، التجاعيد في كل الوجه، الشعر الأبيض في ذقنه نصف النابتة، عينه اليسرى باهتة اللون، وعضلات نصف وجهه الأيسر التي تنقبض بآلية.

يتوقف عن الأكل قليلاً "إنتي عارفة إن دي أول مرة من زمان أشوفك حلوة كدا" تنظر مباشرة في عينه، يحاول مواصلة البلع. "هما ليه المرة دي سايبنا نقرب من بعض كدا"، يقترب أكثر، يلصق فخذه بفخذها، تشعر بانتصابه، أنفاسه التي تتسارع، وعينيه اللتين تزوغان. "وحشتيني بصوت مبحوح، ضائع.

انتظر أن يسمع منها "وأنت كمان"؛ لكنها ظلت في مكانها تتأمله. يمد يده الملوثة بالطعام ليمسك يدها، يغمض عينيه وهو يضغط على أصابعها بشدة، تسحب يسراها بصعوبة، تنظر لساعة يدها الصغيرة، تعرف أن الوقت قد انتهى وأنها ثوان وستسمع صوتًا هائلاً: "الزيارة انتهت"

المحامي أخبرها أن الزيارة هذه المرة ساعة كاملة. ستدخل إليه مباشرة، ستحمل له من الطعام والأشياء ما تشاء، ولن يقوم أحد بتفتيشها؛ قام هو بترتيب كل شيء، والاتفاق معهم على كل شيء.

(الزيارة انتهت)

تسحب يدها الأخرى من كفيه وهي تقوم. تضع أمامه كيس صغير "فيه شوية غيارات، وسجاير، وأكل تاني تصمت ثم تكمل: "وأربع علب برشام"

ترى الصهد المنبعث من عينيه. عضلات خده الأيسر المتراقصة، ولهاثه الذي يبدأ في الخفوت والتقطع.

يقترب منها "صول" طويل القامة. يقف قليلاً ليتأملهما قبل أن يشير إليها لتخرج. لم تنظر وراءها، مشت خلفه بهدوء لآخر المبني الخانق. قلبها يدق بشدة ولا تتوقف عن أكل شفتيها. يدنو من ممر بعيد وأمام باب غرفة مغلق ينظر للعسكري الواقف أمامه وهو يشير له بطرف عينه أن يذهب، يبتسم العسكري في خفوت وهو يفتح الباب قبل أن يذهب.

تدخل الغرفة خلفه وهي ترتعش، يغلق هو الباب من الداخل، يقترب بها من الكنبة الجلدية. أنفاسها تتلاحق، ويداها ترتعشان. يفك الآيش المعدني وبعض الأزرار. ينزل طرف سرواله بسرعة وهو يلهث، تواصل أكل شفتيها، تحاول التراجع؛ لكنه يتقدم، يحاصرها بذراعيه وعيناه تتدحرجان فوق جسدها. يقوم ببطء برفع فستانها الطويل، يقترب منها أكثر، يشم رائحة زيت الزيتون، يتحسس جلدها الناعم المشدود، تستلقي ببطء على الكنبة، يصعد فوقها ولهاثه السريع يتحول لنخير، تغمض عينيها وهي تشعر بعضلات خدها الأيسر تتراقص بطريقة آلية.

طيف

طعم السيجارة بفمي يبدو مرًّا، قاتمًا. شعرت بالعطش يزداد.

ناولته السيجارة، فتناولها بأصابع مرتجفة. كان يشعر بالبرد. شعرت بأطراف أصابعه متجمدة. جسده يرتج وشفتاه يزرقُّ لونهما. نظرته معلقة بلاشيء. يسحب نفسًا طويلاً، فيتوهج لهب السيجارة بشدة.

أردت أن أسأله عن طعام أو ماء. الجو يزداد برودة، والحركة البعيدة تخفت تمامًا. شعرت بالمكان يتسع من حولنا، والسماء تزداد بعدًا وإظلامًا. نظرت في الساعة، كان زجاجها مهشمًا، والعقارب ليست موجودة.

دخان السيجارة الأخيرة يتناثر حولنا، الأسفلت بارد بحق، وظلُّ المساء يهبط علينا بكثافة. أضواء مصابيح الشارع العالية تختفي خلف الغلالة الندية الباردة.

لم ننم ربما منذ يومين أو أكثر. حاولت المحافظة على وضع جلستي فوق الرصيف لأدفئ المكان تحتي ولكن الرطوبة تتسلل لعظامي. جروحي تزداد توهجًا، وكدمات جسمي تشعُّ ألمًا. أعطاني اللفافة المتآكلة. كنت أرتجف وأنا أزداد تكورًا حول نفسي. أردت إمساك لهبها بكفي، فكرت بوضع طرفها المشتعل بفمي ربما تدفئني قليلاً..

لا أذكر إن كنت سألته عن طعام أو ماء، ولا أذكر إن كان قد أجاب. العطش يزداد وطعم الدخان يزداد مرارة.

جاءني طيفها ثانية، شعرت بها، تطلعت حولي ولكن الضباب كان يزداد ويحيط بكل شيء. تقترب مني، حاولت التحرك من على الرصيف؛ لكنني فشلت. تدنو أكثر ببطء لأشمَّ عطرها الخافت وألمح عينيها اللامعتين. شعرها المتطاير حول رأسها يمر أمام وجهي. لهب السيجارة المنتهية يتراجع ليلسع إصبعي، ألقيتها من يدي لتختفي هي.

شممت رائحة البارود تأتي متقطعة من جديد والهواء يحملها مع أصوات بدأت تزداد.

صيحات الاستيقاظ مع الصفارات، منهك تمامًا، لا أقوى على الوقوف، أشعر بالجوع والعطش، تطلعت إليه لأسأله إن كان معه أي طعام أو شراب، ولكن وضعه الملتف حول نفسه كالجنين فوق الرصيف أنبأني بأنه لا يحمل شيئًا. كان يهذي ويتمتم قابضا بيده اليسرى على حجر ضخم، مغمض العينين محاولاً الغياب.

الحركة البعيدة تقترب، أصوات انفجارات خافتة يعقبها رائحة غاز الضباب يغلق الرؤية إلا أنني رأيتها من جديد تأتيني من وسط الزحام البعيد الذي لا أراه؛ مشرقة، جميلة. وجهها يضيء كالأطفال. تمدُّ يدها أمامها، أصابعها البللورية رفيعة. كنت أرتجف، بدأت أنشج والرؤية تضيع من عيني. الضباب يزداد برودة، والأصوات البعيدة تعلو وتقترب.

وقفت وأنا أترنح، نظرت إليه من فوق الرصيف فلم أجده. اختفى مخلفًا مكانه هالة دافئة، وحجر ضخم، وأنين لا يُسمع.

الغاز يُعمي عيني، ويطبق كأخطبوط على صدري. تقدمت مكان هالته الصغيرة، شعرت بالدفء يغمرني، أخطو بين الحطام والدخان، أشعر بخفة مفاجئة. الهتافات بدأت تعلو من بعيد. أنحني داخل الهالة الصغيرة فوق الرصيف لألتقط الحجر الضخم. أملأ به كفي، وأنا أتقدم للأمام ببطء.

حلول

بابل

(إلى زياد الصغير)

– "إنت عارف إنك شبه الإسكندر؟"

ينظر لي قليلاً بعينيه الصغيرتين، يتحسس شعره الأشقر المتناثر ويقول بصوته الطفولي: "آه"

يجلس في منتصف الحجرة، يلعب بألعابه. أتطلع إليه قليلا. أقترب منه لأجده ممسكا في يده بحصان خشبي كبير لم أره من قبل: "إنت جبت الحصان دا منين؟!" يواصل اللعب دون أن يلتفت إليّ. "رد عليا، إنت جبت الحصان دا منين؟".

يرفع لي وجهه الصغير فألمح نظرة لم أرها من قبل؛ "دا بوسيفالوس

– "نعم؟"

– "بوسيفالوس حصاني، اسمه كدا" يعطيني ظهره ليواصل تحريك الحصان للأمام.

– "الو

– "عاوزين حضرتك في الحضانة شوية بعد إذنك"

فيه إيه؟"

– "ماتقلقش، بس عاوزينك تعدي علينا ضروري دلوقتي

– "النهارده رابع يوم زياد مايكونش موجود في الحضانة"

أنظر إليها غير فاهم؛ "ازاي؟ أنا بجيبه بنفسي كل يوم الصبح، وآخر النهار بلاقيه موجود!"

تقترب منّي قليلاً عطرها خافت جدًا. تقترب أكثر فأشمه فائحا، تتسع عيناها الجميلة وتهمس: "مانب أول ما بتمشي هو بيختفي من الحضانة، ومابيظهرش إلا في آخر اليوم وانت جاي تاخده، واحنا قلنا مادام بيرجع ومفيش مشاكل يبقى مش لازم نزعج حضرتك، بس النهاردة حصلت حاجة غريبة جدًا".

ظللت متطلعًا في عينيها قليلاً:

– "نعم ياختي، بيختفي؟!"

صمتت ونظرت لأسفل وشفتاها ترتعشان. محاولاً تمالك أعصابي أقول:

"وايه اللي حصل النهاردة؟"

بعد مانت خرجت بشوية لاقيناه بيسلم علينا، وبيقولنا ادعولي المرة دي، وبعديها بشوية اختفى خالص

– "اختفى خالص؟"

– "آه.. سمعنا في الجنينة صوت حصان عالي، ولما خرجنا مالقيناش زياد، والولاد قالولنا إنه ركب الحصان وجري بيه. قلنا لازم نبلغك بسرعة"

– "حصان وجري بيه، أنا هاخرب بيتكوا"

أقوم بإخراج المحمول من جيبي بيد مهتزة وأحاول طلب أمه، تتسارع دقات قلبي، فأصرخ من جديد: "هاخرب بيت أبوكوا يا ولاد الكلب" أحاول الاتصال من جديد فيعطيني صفارة متقطعة، وجملة no signal التي لم ارها من قبل على هاتفي.. "هاخرب بيتكوا" أقولها بصوت عالٍ وأنا أعدو نحو البيت.

أصعد للطابق الرابع عدوًا، أرتعش وتهتز يداي، أخرج المفاتيح وبصعوبة أتمكن من فتح الباب. أطير نحو غرفته. الباب مغلق والضوء الخافت المتسرب من النوافذ المغلقة يغمر المكان. أفتح الباب بيد مهتزة؛ كانت خالية. تطلعت نحو ألعابه في منتصف الحجرة. لم يكن الحصان موجودًا.. كان ثمة فيلٌ ضخم مكانه له نابان عملاقان؛ فيل هندي ضخم بهودج كبير فوق ظهره. أنفاسي تضيق، وجسدي كله يرتعش. أعيد إخراج المحمول من جيبي ليرن فجأة فيهوى من يدي على الأرض. أنحني لألتقاطه، أنظر نحوه؛ لا رقم يظهر، أضغط على زر الرد، وأضعه على أذني مهتزًا. صوته الطفولي لم يعد طفوليًا: "الو بابا"

– "بابا" صوته المتعب يكرر "بابا"

– "إنت فين يا زياد؟"

"أنا في بابل يا بابا، في بابل وجاي"

يهوى الهاتف من يدي من جديد، وأسقط أرضا، أتطلع إلى الفيل الضخم بجانبي وأنا أعلم أنها آخر معاركه، وأنه لن يأتي كما قال، لن يأتي من هناك أبدًا..

تقمص أخير

يقف منتصبًا بجسده الفارع أمام الباب. تتمدد هي وجواريها على الفراش الوثير أمامه، تتقلب ببطء فينحسر رداؤها الشفاف عن فخذيها اللامعين، تواصل التقلب وجواريها يضحكن بغنج وهن يتقلبن معها.

لا ينظرن إليه، ولا يشعرن بوجوده؛ فقط هي تفعل دون أن يشعر أحد. تلتمع حبات العرق على صدره العاري ونظره موجه للأمام؛ بالكاد يلمح ما يفعلنه، يظل واقفا بجسده المنحوت والحرارة تتصاعد ببطء داخل روحه.

تتطلع إليه بعينيها الكحيلة المرسومة، تقترب منه، تتنفس ببطء في

وجهه وهي تدحرج نظرها على جسده الممشوق. تأمر الجواري بالخروج وتركهما وحدهما. تمسكه من يده وتجذبه نحو الفراش. يتقدم بوجل وأنفاسه تتسارع. الحرارة تتصاعد داخله أكثر

تجلسه على طرف الفراش وهي تتحسس صدره، ينظر إليها بعينيه الملتهبتين، يزداد العرق على جسده العاري وينزلق نحو إزاره الصغير الملفوف فوق وسطه.

تواصل تنفسها الساخن أمام وجهه، تلفحه وهي تدفعه ليستلقي أمامها. تجذبه ليصعد معها نحو الوسادة وهي تندس تحت الغطاء المبخر ذي الرائحة العطرة. يدخل معها ببطء تحت الغطاء، تهمس له في أذنيه بما لا يُسمع، تلتهب روحه بما يسمعه، يغوص بين الوسائد وهي تقترب منه بشدة تحت الغطاء، تنام على صدره العريض. عطرها المتصاعد يعمي عقله. يعلم أنه لن يفعل شيء، وهي تعلم أنه لن يفعل شيء. شهدت بنفسها منذ سنوات ما حدث له؛ لكنه يثيرها، ويحتل عقلها. تواصل الالتصاق به وهو يواصل الاستسلام..

فخذاها الدافئان بين فخذيه القويين. يرتفع الغطاء وينخفض مع حركاتهم. تدفن رأسها في صدره وتغمض عينيها، ويدها تنزلق من على صدره لتهبط ببطء لأسفل. تجذب الغطاء لأعلى باليد الأخرى، وهو يغمض عينيه محاولاً الغياب بعيدًا. تصل لأعلى الإزار القصير، تدفع يدها الصغيرة بخفة تحته، ينقبض فجأة، يفتح عينيه ويهم بالنهوض؛ لكنها تدفعه بقوة وتصعد بجذعها فوقه. تواصل دفع يدها أسفل ردائه. يحاول النهوض مرة ثانية وهو يتطلع

حوله. تضغط عليه بقوة أكبر، وتقترب من أذنه وتهمس: "شششششش تصل بيدها لعضوه، تتحسسه ببطء، تجمد لثوانٍ وتتسع عيناها. يحاول التكلم والنهوض من جديد. تضع يدها الأخرى فوق فمه. أنفاسها تتسارع ويدها تواصل اعتصار عضوه الصغير المرتخي. تنظر في عينيه بذهول فيدير عينيه للجانب الآخر وهو يحاول النهوض بقوة، وقبل أن تدفعه مرة أخرى؛ تأتي الصيحة [كاااات].

"الله ينور يا أستاذة.. الله ينور يا أستاذ"

تسحب يدها بسرعة، قبل أن ترفع الغطاء الرقيق وتنهض مسرعة. تجرى نحوها مساعدتها، تتراجع معها للخلف، تنظر إليه وهو ينهض من على الفراش بطوله الفارع وجسده المصقول القوي. يمر من جانبها دون أن ينظر إليها. يتناول معطفه الطويل ليرتديه قبل أن يلتفت لينظر إليها نظرة ميتة.

في المنزل، يقف عاريًا امام المرآة، ينظر لجسده الأسمر.

عضوه يتدلى في فتور منكمشا كما لم يره من قبل. وخصيتاه ضامرتان منكمشتان بشكل غريب. طرقات مسرعة على الباب دفعته لارتداء بشكيره الواسع، وصوت يأتي من الخارج: "بابا.. بابا إنت جيت؟"

يواصل التحديق في المرآة قليلاً قبل أن يهوى فوقها بكفه الأيسر. يشعر بالجرح الغائر والدماء الساخنة وهي تندفع بغزارة، يسقط أرضا، وقبل أن

يبتلعه الدوار المظلم يسمع صرخات من الخارج: "بابا.. باباااا.. فيه إيه؟"

"ألف سلامة يا أستاذ. مال إيدك؟ إيه اللي حصل؟" يشيح بيده المصابة محاولاً الابتسام. بس إحنا كدا مش هينفع نكمل المشهد" صوت آخر من الخلف: "معلش معلش.. نصور المشهد اللي بعده. خللي الأستاذ يريح شوية"

في غرفتها بعد انتهاء التصوير يجلس مطرق الرأس، تنفخ دخان سيجارتها وهي تقول بعصبية: "فيه إيه بقى؟ مالك؟"، يهز رأسه وهو لايزال مطرقًا.

تسحب نفسًا عميقًا: "إنت افتكرت نفسك مخصي بجد؟! إنت بتعمل دور واحد مخصي. إيه اللي جرالك؟" يحاول التنفس بصعوبة وكلماتها تخترقه.

في فيلم سابق لهما كانت بجانبه على الفراش تحت الغطاء، عندما تحسست عضوه لأول مرة. أثاره وأثارها أنهما يفعلان هذا أمام الطاقم والكاميرا، دون أن يراهما أحد. أعجبه ما فعلت، وهي وجدت ما تبتغيه. اعتادا فعل ذلك كثيرًا دون أن يلاحظ أحد شيئًا.

تصمت قليلاً، تقترب منه بملابسها الشفافة، تربت على فخذه القوي. "معلش.. معلش تلاقيك اندمجت شوية بس، بتحصل.. خدلك كام يوم راحة من التصوير وإنت تبقى زي الفل يشعر فجأة بغثيان مباغت ودون مقدمات يتقيأ بغزارة مغرقًا وجهها وصدرها العاري نصفه وملابسها.

آخر ما سمعه قبل أن يهوى كان صراخها العالي المتقزز.

يخلع ملابسه بالكامل، يصعد السرير جانب زوجته نصف النائمة، تفيق على صعوده، تراه فتبتسم بخمول، يندس جانبها تحت الغطاء، يلتصق بها وهو يقبلها بعنف، يمسك يدها، يضعها على عضوه المرتخي، فتدهش وتنظر له باستغراب؛ لكنها تواصل القبض عليه. يدس رأسه في كتفها وهو يلهث. يقبض بكفه على كفها الممسكة بعضوه. تشعر بشيء غريب. تواصل تحسسها: "إم... أمال هما فين الـ " تصمت دون أن تكمل، يفزع، يزيح الغطاء ويلقى به بعيدا، ينهض بنصف جزعه ويتحسس أسفل عضوه، يشعر بكرتين صغيرتين تتدحرجان بعيدًا، وإحساس غريب بخواء يجتاحه. شعر بدوار واختناق شديد. لم يسمع صرخات زوجته وعويلها وهو يتجه مترنحًا ليقف منتصبًا، شابكًا ذراعيه أمام صدره القوي بجانب باب الحجرة الصغير

غياب

"مش يحيى هو اللي كان اداك الساعة دي؟"

أنظر إليها وأنا أواصل البحث دون جدوى.

ظللنا أصدقاء كل تلك السنوات، لم نفترق سوى لعمل أو سفر، يكلمني وأكلمه، أحكي له ويحكي لي. كان الموضوع رتيبًا دون قصد منا.

عندما اتصلت به ذلك اليوم غاب قليلاً قبل أن يرد، جاء صوته جافًا.

(يحيى. أنت نايم؟).

فاجأني: (معلش.. مين معايا؟ مابصتش على الاسم قبل ما أرد).

صمت بارد؛ (معلش يظهر الوقت مش مناسب). كرر ثانية بصوته الجاف: (بس مين معايا الأول؟).

(أنت مش عارف صوتي بجد ولا بتهزر؟).

(.....)؛ لم يرد. (.. وله يا يحيى). أدركت بعد دقيقة تقريبًا أن الخط قد اغلق.

نسيت ما حدث، لم أتذكره إلا وأنا أتصل به ثانية. طالت المدة قبل أن يرد بصوت متردد (ألو..؟).

(أيوه يا يحيى).

(معلش.. مين؟).

ظللت صامتًا قليلاً قبل أن أرد عليه باسمي، لم يبدُ عليه التغير كأنما لا يعرفني؛ (يحيى انت مش عارف مين معاك بجد؟).

(..... !).

(مالك يا بني فيه إيه؟).

ثوان لأدرك ثانية أن الخط قد أغلق وأنه رحل دون أن يجيب.

لما قابلت أحد أصدقائنا وحكيت له لم يندهش، وأخبرني بأن ذلك قد حدث معه أيضا.

"الساعة ضاعت. اختفت، مش لاقيها"

تنظر لي صامتة، فأكمل بغضب:

"كانت هنا، وانا قلت مية مرة محدش ييجي جنب حاجتي

تتصل بي سارة خطيبته.

تكلمني هامسة، تخبرني بأن هناك شيء غريب لا تفهمه يحدث. أستوعب سريعًا ما تحاول قوله وأنا أحاول طمأنتها.

"يحيى تقريبًا مش فاكرني، فيه حاجة غريبة في الموضوع. انا مش فاهمة، وكمان فيه حبة حاجات تانية غريبة بتحصل

لسبب ما لا أسألها، فتصمت وتعتذر عن الإزعاج وتغلق الخط.

أواصل البحث العصبي في الأدراج. اختفت الصور أعلم أنها كانت هنا؛ لكنها لم تعد موجودة. أسحب هاتفي وأتصل بإسلام: "هي صور رحلة رشيد عندك؟"

"نعم؟"

"معلش يا إسلام. إزيك الأول؟"

"صور إيه دي اللي إنت ملهوف عليها كدا"

"صور رحلة رشيد في الكلية"

يصمت قليلاً: "معلش مش فاكر

"مش فاكر الصور، ولا مش فاكر الرحلة؟"

"الاتنين، إنت عاوز إيه بالظبط؟"

"ولا حاجة. مش عاوز حاجة" أنظر في الدرج المبعثر أمامي والعرق البارد ينتشر ليغمرني بالكامل.

أتصل بسارة لأسألها عن يحيى، وعما كانت تنوي حكيه لي.

"معلش، مين حضرتك؟"، فأخبرها. تصمت لتقول: "معلش تاني، بس مش فاهمة حضرتك عاوز إيه؟"

"بسأل على يحيى، وكان في حاجات غريبة بتحصلك كنت عاوز أعرفها"

فترة الصمت تطول؛ "معلش، بس مش عارفه حضرتك عاوز إيه. أنا آسفه"

أشعر بالتشتت طوال اليوم كأني أفتقد شيئًا ما. أمسك الموبايل ثم أعود لأتركه، أتذكر فأمسك الموبايل ثانية.

"الو يا إسلام"

"ايوه يا ابني

"انا كنت كلمتك من كام يوم كدا، كنت بادور على حاجة. مش فاكر أنا كلمتك ليه؟" "مش فاكر

"مش فاكر إيه بالظبط. إن أنا كلمتك، ولا كلمتك ليه؟"

"الاتنين. إنت مالك. فيه إيه بالظبط؟"

بالأمس حلمت بيحيى. كان يضحك ضحكته الصافية العالية. عندما استيقظت تذكرت أنني لم أكلمه منذ فترة. تناولت الهاتف وبحثت عن الرقم فلم أجده. قمت بالبحث عن اسمه. كانت قائمة الأسماء: "ياسر، ثم يوسف" مباشرة دون أحد بينهما. ألقيت بالهاتف وصحت على زوجتي: (مليون مرة أقولك مش عاوز حد من العيال يمسك موبايلي. الحاجة بتتمسح، مش عاوز حد يمسك حاجتي خاااالص). تنظر لي دون فهم ثم تؤثر السلامة فتتراجع ببطء حتى تخرج من الغرفة تاركة إياي غارقًا من جديد في عرقي البارد المتصاعد.

"ايوه يا اسلام"

"ايوه يا ابني

"معلش يا سولوم نمرة الواد يحيى اتمسحت من عندي، اديهالي

"يحيى مين؟"

يحيى، يحيى صاحبنا، إحنا عندنا كام واحد اسمه يحيى يصمت.

أكره ذلك الصمت وأتوقع التالي ولا أفهمه.

"وانت كان لسه عندك نمرته؟"

"يا ابني انا مش لسه حكيلك إن أنا كلمته وما افتكرنيش، وإنت قلت لي إنه حصل معاك برضه!"

"مش فاكر

"أحا يا إسلام"

منذ سنوات لم أذهب إليه؛ لكنني أعرف البيت جيدًا. محرم بيه، شارع بوالينو. أقترب من البيت وأنا أحاول ترتيب ما سأقوله له إذا لم يتذكرني.

المدخل المنخفض، والسلم شبه المظلم، الطابق الثاني. أتوقف قليلاً أمام الشقة. اللافتة النحاسية الصغيرة على الباب كما هي منذ سنوات؛ وإن تآكل من عليها الحبر قليلاً:

(محاسب / محمد السيد إبراهيم).

أرنّ الجرس. أمسح العرق من وجهي وأنتظر قليلاً. أسمع صوت خطوات بطيئة بالداخل. يضاء النور الأصفر يُفتح الباب. وجه أمه ذو النظارة الطبية المبتسم الطيب. لم أرها منذ سنوات، أبتهج وأبتسم: "إزيك يا ماما؟"

تتجمد مكانها قليلا، تنظر لي بتعجب: "إزيك يا ابني؟ افندم" أبتلع إحراجي. "معلش يا حاجة. يحيى موجود؟ أنا صاحبه من زمان تظل ناظرة إليّ طويلا قبل أن تشيح بوجهها وهي تقول: "مفيش حد هنا اسمه يحيى

البقاء فوق رصيف مبتل

تزيح الغطاء من فوقه، فتهاجمها رائحة اليوريا، تبتعد للخلف خطوتين وهي تنادي عليه. يتقلب بكسل فتقول له بفتور:

"إصحى ياللا، هتلاقي غيار نضيف عندك في الحمام" يتحسس نفسه بسرعة، فيشعر بالبلل فيدرك أنه قد فعلها ثانية.

يتطلع إليه من جديد.

ينظر إليه عبر الرصيف وهو مفترش الأرض المبللة، يحاول لم أطراف "البطانية" القذرة حوله. ونظرته المشتتة تجول في الأفق البارد. لم ينتبه إليه إلا مع المطر عندما رآه يتراجع "ببطانيته" ليحتمي بالحائط أسفل بلكونة منخفضة. المياه تتجمع أمامه، وركبتاه مثنيتان لصدره.

الهواء البارد يصفع وجهه ويتسرب لداخل ملابسه الثقيلة فيضم جاكتته على صدره وهو يبتعد، قبل أن تمطر ثانية.

نهض من فوقها دون أن يفعلها، تراجع في الفراش ليستند برأسه للخلف وهو يلهث. يضم الغطاء فوقه ويشعل سيجارة ذات طعم مر ظلت هي مستلقية قليلاً قبل أن تستدير لتوليه ظهرها العاري وتدس رأسها في الوسادة أسفلها. الغريب أنه لم يفكر فيما حدث. كان كل تفكيره أنها أصبحت تراه: (بشخة). ظل يفكر في الموضوع قليلا ليكتشف أنها أيضا الآن بعد ما حدث، أو بعد ما لم يحدث قد أصبحت تراه (لا مؤاخذة). أطفأ سيجارته ونظر إليها قليلاً قبل أن يعطيها ظهره، ويغمض عينيه، وينام.

"إنت مالك فيه إيه، إتسخطت؟ إيه القرف ده؟"

يواصل النوم أو التظاهر بالنوم. تشد الغطاء، فيشعر ببرد مفاجئ، يتذكر معه أنه نام عاريًا بالأمس. كان البلل تلك المرة مضاعفًا. فتح عينيه ليراها أمامه تنظر إليه بوجه غاضب: "هتلاقي هدوم نضيفة عندك في الدولاب. قوم استحمى علشان تلحق الشغل

ابتعدت وهي تشدُّ الغطاء خلفها ويسمع تمتمتها الخافتة عن (الشخاخ، وقلة القيمة).

تلك المرة مر بجانبه. جالس نفس جلسته، محتضن ركبتيه بذراعيه. لاحظ أن ملابسه خفيفة جدا، وأن البطانية رقيقة وبها ثقوب كبيرة. فكر كيف يظلُ جالسًا على الأرض الباردة تحت المطر كيف يتحمل البرد القارص؟ توقف أمامه تمامًا فرفع إليه نظره من أسفل. خلع جاكتته الصوفية الثقيلة ووضعها مفرودة عليه وسار سريعًا. لم يكن مجنونًا كما ظن؛ لأنه سمع من خلفه صوتًا مرتعشًا: "ربنا.. ويسترك.. وصحتك.. "؛ خطوتان، وشعر بالماء الدافئ يسيل دون إرادته بين فخذيه ليبلل بنطاله، تحسس موضع البلل وهو يرتعش مذهولاً توقف مصابًا بالذعر و لم يمشِ ثانية إلا بعد أن بدأت تمطر من جديد.

"انت هاتعمل إيه؟"

ينظر لها دون أن يجيب، والهواء البارد يصفعهما معًا.

"رد عليا.. إنت بتعمل إيه بالظبط؟" تصرخ ثانية..

يواصل فرد الكرتونة العريضة على أرض البلكونة الباردة، يتجه للفراش ويسحب من عليه الغطاء وهو يرد ببطء:

"زي ما انتي شايفة. هكون بعمل إيه يعني؟"

يجلس أرضًا مستندًا للسور خلفه ومحتضنًا الغطاء. يشعر على الفور برطوبة الأرض تحته. رطوبة باردة آلمته.

"إنت هتنام هنا؟" بذهول.

فيجيب باقتضاب: "آه"

"آه إيه؟ إنت اتجننت، هتنام في البلكونة؟" ينام بالفعل موليها ظهره ناظرًا للسور البارد. ويشد الغطاء على وجهه حتى لا يسمع منها شيئًا آخر، ولأول ليلة منذ زمن ينام دون أن يبلل نفسه.

لم يكن موجودًا في مكانه هذه المرة. كانت بقايا البطانية تفترش الرصيف في أشلاء متقطعة طويلة. وثمة خيط طويل من الماء متجه نحو البالوعة المفتوحة. توقف قليلاً ينظر نحو الأنمال المبعثرة، ثم خطا نحوهم والشعور بالبرد يتضاءل داخله. وجد الكرتونة البالية لا تزال مكانها. ببطء دنا منها، ومال يتحسسها. كانت جافة في مأمنها تحت البلكونة المنخفضة. سمع الرعد يدوي أعلاه، ورائحة البحر تأتي من بعيد. تحسس بنطاله. كان جافًا ولا أثر لرائحة اليوريا. شعر بعضوه ينتعظ تحت يده، فابتسم وهو يجلس بهدوء فوق الكرتونة محتضنًا ركبتيه أمام صدره. يدير عينيه حوله في الأفق البارد. وعلى الرصيف المقابل كان ثمة من يقف مرتديًا جاكيت صوفيًا دافئًا وينظر نحوه بتوجس. قبل أن يضم ملابسه حول صدره ويسير متخذا طريقه نحو بيته، قبل أن تمطر ثانية.

محاولات للخروج

دخلت المكتب بهدوء وقامت بإغلاق الباب خلفها. اتجهت مباشرة نحو المكتب الخالي في ركن الغرفة، جلست على كرسيه الجلد المريح، انزلقت لأسفل قليلا حتى اختفت رأسها أسفل شاشة الكمبيوتر المواجهه للباب.

لم يكن بالمكتب سواي مع محمود وشريف. خلعت نظارتها ووضعتها أمامها، وبصوت مبحوح: "عاوزة سيجارة"

نظرنا لبعضنا في صمت. أعادت وهي تنزلق في الكرسي أكثر "عاوزة سيجارة" هي تعلم أنني لا أدخن، لذا نظرتَ نحوهما مباشرة:

"ايه خايفين؟ لو حد دخل هيلاقيني أنا اللي بدخن، والسيجارة كانت معايا"، وبعصبية صاحت: "عاوزة سيجارة بقى قام محمود من مكانه

واتجه نحوها وضع أمامها علبة سجائره "المارلبورو الأبيض وولاعته الفضية. بيد مهزوزة أخرجت سيجارة وأشعلتها. سحبت منها نفسًا عميقًا كتمته داخلها قليلاً، قبل أن تنفسه أمامها في خيط طويل متقطع.

اعتدلت قليلاً في جلستها، وإن ظلت مختفية خلف الشاشة. نظرت لي بالمكتب جانبها وقالت: "كان نفسي من زمان أولع سيجارة في الشغل سكتت، ابتسمت وهي تكمل: "في المكتب أقصد، مش في الحمام" تسحب نفسا آخر وتواصل: "حاجة وسخة إن انتوا بس اللي بتشربوا سجاير وقت ما انتوا عاوزين، ومكان ما انتوا عاوزين

غابت في اليوم التالي عن العمل في منتصف النهار، اقترب مني محمود بتوتر وقال: "إنت عرفت؟"

"عرفت إيه؟"

"ماسمعتش يعني اللي حصل؟"

"يا عم ماسمعتش، في إيه؟"

"مش دعاء جوزها عرف إنها بتشرب سجاير وضربها" كان صوته مبحوحًا، وعيناه تتسعان.

"و.. وعرف منين؟!"

"مش عارف بس البنات اللي معاها في الأوضة هما اللي كانوا بيقولوا

من شوية. وأنا سمعتهم بيقولوا إن فيه حد اتصل بيه من مكتبها وقاله"

أكرر خلفه بآلية: "حد اتصل بيه من مكتبها؟"

"آه.. أنا خايف ليعرف إن أنا اللي اديتها السيجارة امبارح"

"يعني هي ما شربتش سجاير غير امبارح بس؟ أكيد الموضوع بينهم قديم، وفيه حاجات تانية إحنا مانعرفهاش

"يعني. يعني اللي اتصل مش ممكن يكون قال عليا؟"

يا ابني وانت نمت معاها، دي سجارة واحدة. ما تقلقش ظلَّ متطلعًا إلي صامتًا قبل أن يقول: "ربنا يستر

عندما جاءت بعد يومين كانت عينها اليسرى متورمة، وكدمة زرقاء كبيرة في جانب شفتيها الأيسر. لم تكن ترتدي نظارة شمسية كبيرة، كما لم تكن تضع أي مساحيق تجميل. كانت تضحك و لم تحدث أحدًا بأي شيء عما كان.

في منتصف النهار تقريبًا دخلت حجرتنا المفتوحة. اتجهت بثبات نحو أول مكتب خال قابلها جلست عليه وتطلعت فينا قليلا. حاولنا الكلام؛ لكن لم يفعل أحدنا. حاول محمود الانشغال بما في يده.

"إنتوا عرفتوا اللي حصل؟" كانت لهجتها محايدة، وصوتها هادئ. لم ننطق.

"أكيد عرفتوا، وعرفتوا إن أنا اتضربت"، وضحكت ضحكة عالية وهي تنزلق بجسدها لأسفل في الكرسي الكبير. "أكيد باين عليا" لا أعلم من نطق بصوت خافت: "معلش"؛ لكنها أكملت: "وأكيد بتسألوا نفسكوا هو عرف منين؟" نظرنا لها بترقب، فأكملت: "الحقيقة هي أن مافيش حد اتصل بيه من هنا وقاله زي ما كلكوا سمعتوا" سكتت بعد أن لفتت انتباهنا كلنا. قامت من مكانها واتجهت نحو محمود بثبات. مدَّت يدها أمامه وتناولت علبة سجائره. أخرجت واحدة ببراعة وأشعلتها بولاعته. سحبت نفسا عميقًا وأكملت: "الحقيقة ببساطة هي إن أنا اللي قولتله" واتجهت بهدوء لتخرج من الباب المفتوح.

حفل تنكري

مشهد (1) من فيلم عربي قديم.

حسين فهمي يتقدم مسرعًا في المطار ومعه زوجته نجلاء فتحي لاستقبال كمال الشناوي. يقوم بتعريفه بنفسه على أنه: وكيل الشركة" يسلم عليه كمال الشناوي وعينه على زوجته لا تتزحزح. تقريبًا لا يهتم بحسين فهمي ويقوم بإلقاء مغازلة رخيصة لنجلاء فتحي فتبتسم، ويبتسم معها زوجها سعيدًا.

متوترًا يفرك كفيه بعصبية. أول عشاء عمل له، وأول اقتراب لهذه الدرجة من صاحب العمل. زوجته تجلس جانبه، تشجعه بابتسامة خافتة. أخبرها بأنه الوحيد الذي تلقى ذلك الطلب من المدير. اجتهاده ونجاحه

وذكاؤه أشياء لا يمكن إغفالها بالتأكيد؛ هكذا همست له مشجعة. جاء الرجل وحده، يلمحه يدخل من المدخل الفخم، ينظر قليلا حوله قبل أن يقترب منه بنشاط. سلم عليه وهو ينظر في عينيه مباشرة. بدا أصغر سنًا وأكثر حيوية عما رآه في العمل. يعرفه على زوجته، يبتسم وهو يتأملها بعينيه. ينظر في عينيها قليلاً قبل أن يلتقط كفها الصغير ويقوم بتقبيله.

مشهد (2) من فيلم عربي قديم:

يتحدث كمال الشناوي عن كفاءة حسين فهمي في العمل فيطلب الأخير سريعًا أن يكون مسؤولاً عن مكتب المغرب. يصمت الشناوي وهو يتملى في عيون نجلاء، ويخبره أنه يجب عليه أن يعرفه أكثر من هذا ليوافق ويطلب منهما أن يتناولا معه العشاء ليلاً، ثم يقومون ليركبوا "التليفريك"

يعرض عليهما بعد انتهاء العشاء أن يقوم بتوصيلهما بسيارته. يحاول الرفض محرجًا؛ لكنه ينظر له بعينيه النافذة، ثم يدير عينيه نحوها. تظل متطلعة إليه دون أن ترمش. عندما فتحت معه موضوع فرع الشركة الجديد كما أخبرها زوجها أن تكون هي المتحدثة في هذا الطلب. لم يتكلم الرجل، بدا له أنه لم يسمع.

في منتصف الطريق أخبرهما أنه يدعوهما لتناول مشروب ما في منزله

ليتمكنوا من الحديث في طلب زوجته الجدير بالاهتمام. شعر بسعادة وتمنّى أن يوافق سريعًا.

كانت زوجته تجلس بجانبه بالأمام وهو يجلس وحده بالخلف. حاول أن ينظر لها عبر المرآة؛ لكنه اصطدم بعينيه النافذة. تنظر له متأملة: "موافقين طبعًا" كانت هذه زوجته تقبل سريعًا؛ ربما لتساعده في التقرب من الرجل.

مشهد (3) من فيلم عربي قديم:

يفتح لهم العامل باب "التليفريك الصغير، فتتقدم نجلاء فتحي لتدخله، ويهم الرجلان ليدخلا بعدها، فيخبرهما العامل أنه مخصص لاثنين فقط، فيبتسم حين فهمي ويتراجع مفسحًا المجال لكمال الشناوي ليركب وحده مع زوجته.

يركن سيارته أمام عمارته الفخمة، يقترب منه البواب سريعًا ليتناول منه المفتاح. يتقدمون في المدخل الفندقي الفاخر يمسك بأطراف أصابع زوجته وهو يتأخر عنهما بخطوة. تسير بجانب رئيسه محاولة تأخير نفسها لتسير بجانب زوجها فيتأخر هو أكثر ليترك لهما المجال يسيران في راحة. لاحظ إعجاب الرجل بزوجته، أسعده هذا وأشعره بأنه لن يرفض طلبها له. سيهمس لها أن تواصل إلحاحها معه عن نجاحه وذكائه

وإخلاصه للعمل وأنه الشخص المناسب تمامًا للمكان الخالي. يتوقفون أمام الأسانسير ليفتح لهما العامل الباب. يشير الرجل لزوجته أن تتقدمهما، فتفعل يدخل الرجل خلفها، ويهم هو بالدخول فيخبره العامل بابتسامة باهتة بأن الأسانسير لن يتحملهم جميعًا. يبتسم محرجًا في خفوت ويتراجع ببطء للخلف دون أن ينظر لزوجته.

مشهد (4) من فيلم عربي قديم.

"التلفريك" يهتز فجأة فتفزع نجلاء فتحي وتنتفض. يحتضنها على الفور كمال الشناوي ويخبرها بأن لا تفزع. يمسك يدها ويقترب منها طالبًا منها عدم الخوف، ويقوم بإلقاء مغازلة مكشوفة عن عطرها المثير الذي لا يحتمله.

يهتز الأسانسير وتهتز أضواؤه فيتوقف به العامل في الطابق الثاني، يفتح الباب ويخبر الرجل أنه سيخرج ليقوم بالبحث عن سبب اهتزاز الأسانسير وضبطه، يهز له الرجل رأسه في هدوء وهو ينظر له طويلاً. يخرج العامل فيغلق الباب خلفه. ثوانٍ ويهتز الأسانسير ثانية وتتقطع الإضاءة. يقترب منها ويمسك بيديها. عطره فائح كثيف، وهمسه الخافت يتسلل لها ببطء. تحاول الابتعاد عنه فيهتز الأسانسير مرة أخرى. يختل توازنها فيلتصق بها بحدة. تدفعه وتبتعد خطوة للخلف، فيواصل همسه الخافت: "ماتخفيش، إسمعي اللي هاقوله... . يقترب منها ويواصل

كلامه: "مش هاعملك حاجة، ماتخفيش. إسمعيني بس

تحاول الابتعاد ثانية؛ لكنه يواصل الكلام: "إنتي طلبتي طلب. اسمعي طلبي أنا" تستمع له مشدوهة وهو يتحدث. تتطلع في عينيه اللامعتين وشاربه المنمق الكثيف. تتركه يقترب منها جدًا. يتصاعد عطره مع حركة الأسانسير لأعلى وكلامه يخفت مع خفوت الإضاءة ثانية.

مشهد (5) من فيلم عربي قديم.

نجلاء فتحي تطرق باب غرفة كمال الشناوي بالفندق. يهب ببول أوفره" الأحمر ليفتح. يتفاجأ ويفرح. يسأل عن حسين فهمي زوجها فتخبره بأنه قادم خلفها. يدعوها للدخول فتدخل وتجلس ويجلس بجوارها. يحاول تقبيلها فتطلب منه الانتظار؛ لأنها تريد الحديث أولاً يقترب أكثر ليقبلها قبلات سريعة متلاحقة. تطلب منه ـ وسط القبلات ـ أن يعيّن زوجها حسين فهمي مدير مكتب المغرب فيوافق. يطرق الباب ليأتي حسين فهمي معتذرًا عن التأخير يتجه كمال الشناوي ليصب له كأسًا وهو يقول: أنه يفكر في تكليفه بمسؤولية مكتب المغرب. يناولهما كأسيهما ويشرب هو من كأسه نخب تعيينه في المكان الجديد.

عندما صعد بالأمس وجد زوجته تجلس بانتظاره بالداخل. ظلت تتطلع إليه طويلاً قبل أن يقدم له رئيسه كأسًا صغيرة، كان منتظره بها.

تناولها منه وهو ينظر إليه وإلى زوجته. رأى كأسها في يدها شبه خالية. رفع كأسه لأعلى ليقوم هو برفع كأسه لأعلى معه.

قبل أن تقترب منه زوجته ببطء وهي تخبره بأنهما مدعوان لحفل تنكري على شرف المنصب الجديد.. "مبروك" لم يصدق أن يوافق الرجل سريعًا هكذا. يقترب منه وهو يصب له المزيد من الزجاجة الأنيقة. يوجه له الكلام مباشرة: "حفلة على شرف توليك الإدارة في فرع الشركة الجديد. أنا اتفقت مع المدام على كل حاجة.. مبروك" لم يصدق أن تتمكن زوجته بهذه السرعة والسهولة من إقناع الرجل. مبروك؛ قالها وقفز يحتضن زوجته، ويحتضن رئيسه.

يرتدي "بذلة" توكسيدو وقناع أسود صغير، وزوجته ترتدي "فستان" يشبه أميرات قصص الأطفال؛ واسع ومفتوح الصدر وشعرها متماوج حول رأسها بكثافة. الضوء خافت بالحفلة الصاخبة عندما جاءه رجل بقناع كبير يناوله ورقة صغيرة مطوية. فتحها: "غرفة 204 / أنتظركما" تجرع ما تبقى من كأسه. التفت إلى زوجته وأراها الورقة.

كان كأسها الثاني أو الثالث. تشرب ببطء وهي تهز رأسها: "أكيد كلام في الشغل" وناولته كأس ممتلئة. كانت الموجودات تلفُ ببطء أمام عينيه. وإحساس هائل بالثقل يمسك قدميه. تناول الكأس وشربه سريعًا قبل أن تهب زوجته وتسحبه معها للخارج. يتجهان للأسانسير. يصعد بهما ثم

السير المهتز نحو باب الغرفة الغير مغلق جيدًا. تتقدمه هي، تدفع الباب وتدخل ساحبه إياه خلفها. لم تكن هناك إضاءة؛ فقط شموع مهتزة وهو يجلس منتظرًا إياهم مرتديًا "روب" أسود كبير وقناع يغطي وجهه. هب من مكانه لاستقبالهما ماسكًا كأسين صغيرين يتناولاه منه. يشير لهما بالجلوس فيجلسا. رائحة الشموع العطرية تتصاعد ببطء. يتجه نحو الباب ويغلقه، وهو يعيد صب الكؤوس.

تترك زوجها جالسا وتجلس على مقعد وثير بركن الغرفة. كان يشرب بصعوبة بيد مهتزة ووجود غائم مشتت. يحاول أن يتكلم. لسانه ثقيل. لم يكد ينتهي من كأسه حتى وجد زوجته تقترب منه لتصب له المزيد. أغلق عينيه وترك الكأس تسقط من يده وهو يتراجع للخلف متهالكًا. يسقط على الفراش خلفه. تضع هي كأسها برفق على المنضدة الصغيرة جانبها. يقترب منها الرجل بكرشه المتدلي أمامه. تنظر في عينيه مباشرة. عطره القوي يمتزج بعطر الشموع المتصاعد. يدنو منها أكثر، يبتسم لها وهو يهمس لها بصوت مبحوح. تبتسم بركن فمها وهي تهز رأسها ببطء.

يساعدها على دفع زوجها لأعلى الفراش. يهزي وهي تدفعه لأعلى. تقلبه على وجهه، تفك حزام سرواله، وتسحبه لأسفل، تتراجع للخلف، وهي تنهج والعرق يغمر وجهها. تنتظر لثوان. تمد يدها سريعًا وتخلع باقي ملابس زوجها وتستلقي جانبه. تسمع لهاث الرجل يتصاعد. ترى الدماء تندفع لوجهه الأبيض الحليق أسفل القناع الذي يغطي عينيه. تنتهي من خلع ملابس زوجها بالكامل وتقوم بوضع قناعه الأسود فوق وجهه ثانية. يقترب منها الرجل بكرشه المتهدل، يتوقف جانبها، يفك رباط الروب

الفخم. يطلب منها أن تساعده. بيد مهتزة وببطء تنزل سرواله الداخلي لأسفل. تنظر له نظرة مهتزة مشتتة، تتراجع للخلف وهي ترتعش. يتقدم هو فوق الفراش ويقترب من زوجها الغائب. تهبط هي وتتراجع ببطء لتجلس على الكرسي الوثير الملاصق للفراش. تشعل سيجارة وتمسك كأسها وهي تشاهد بشغف ما يحدث.

ميكي

أحيانًا يكون ميكي، وأحيانًا يُصبح بطوط..

كان اليوم ميكي..

يتطلع إليه طويلاً، ثم يهمس له: "ميكي يصمت وهو يمسحه بنظره، ثم يُكمل: "اقلع هدومك وغيّر"، يكررها ككل يوم، فيقوم بخلع ملابسه بالكامل.

لم يكن بيده الاختيار أستاذ شريف هو الذي يختار له. كل يوم يدخل له مكتبه ليختار له زيه؛ ميكي أو بطوط..

جالسًا خلف مكتبه، يتأمله من جديد كما تأمله أول مرة جاء فيها.

"مفيش أكل ولا شرب ولا حشيش، مفيش معاكسة بنات ولا كلام في المحمول، لا تقول لي عاوز ادخل الحمام ولا عاوز اروّح بدري. الوردية اتناشر ساعة، القبض بالأسبوع ويوم الغياب بيومين خصم

يهز رأسه بضعف.

يُكمل: "هتجيلي كل يوم علشان اختارلك اللبس بتاعك، ودلوقتي أنت هتلبس بطوط. مبروك الشغل

يحاول الابتسام؛ لكنه يفشل. الشغل الثالث له هذا الشهر، وموسم الصيف تقريبًا قد ولى، ولا فرص أخرى للعمل..

"اقلع هدومك وغيّر يظل ناظرًا إليه غير فاهم.

"أصل العيال ولاد الكلب لما كانوا بيلبسوا على هدومهم يستنوني أول ما امشي، ويروحوا قالعين الزي على طول يصمت قليلاً، ويكمل: "عيال وسخة"

يواصل صمته الرديء..

"علشان كدا أنت هتقلع هدومك كلها وتخليها في المكتب هنا، وانا ماشي هاقفل عليها، ولما آجي تاني بالليل، تدخل تغير ماشي؟"

يهز رأسه بإيماءات متواصلة تفي بالغرض.

"اقلع وغيّر .

يتمكن أخيرًا من الكلام ليسأل:

"هنا؟!"

"آه هنا، اخلص

ببطء يفك حزامه، وينزل بنطاله، يفك أزرار قميصه ويخلعه وهو يرتجف. ملابسه الداخلية المهترئة تشعره بالبرد أكثر. يتلفت حوله باحثًا عن الزي، يجده بالخلف بجانب باب الحجرة. قبل أن يتحرك، يسمع صوته الناعم. "والباقي ؟"

ينظر إليه: "باقي؟!"

"آه باقي الهدوم كلها، يالا ماعندناش باقي اليوم، فيه شغل

تغلفه سحابة باردة، يكمل خلع ملابسه دون كلام، ينزل لباسه المتهدل، ويخلع فانلته المهترئة، يحاول مداراة عضوه المنكمش بيديه؛ لكنه على مكتبه يواصل التحديق، يشير له برأسه ناحية الباب ويهمس: "البس بطوط"

يستدير ليوليه مؤخرته، يسير ببطء ناحية الزي جانب الباب، ينحني ليلتقطه وهو يعلم أنه يتأمله من الخلف. يندس في الزي الواسع، يثبت الحمالات من الداخل لكي لا يسقط، يتناول القناع الكبير ذا الرائحة العطنة، يضعه على وجهه ليرى العالم من فتحتين صغيرتين.

يوزع الورق، يمسك كومة أوراق الدعاية بيديه ذات القفاز المتسخ،

ويوزعها أمام المدخل الضخم للمحل، يتفادى كل من معه بالمحل ولا يكلم أحدا على الإطلاق. يسخرون منه ومن زيه المتغير كل يوم بأوامر أستاذ شريف.

العرق يزداد، والجو بالداخل يزداد سخونة، الشمس تواصل سحقها له داخل الزي، يشعر بالعطش. القطرات المالحة تتجمع فوق شفته العليا فينفض رأسه ليتناثر العرق داخل القناع. يشعر بالحكة في ظهره تأكل روحه. الوقت لا يمرّ والأوراق لا تنتهي. تنظر له الفتيات المارات بلامبالاة، وينظر له زملاؤه بالمحل بسخرية لا يطيقها.

يرى فجأة أمامه جارته وابنتها الجميلة تتناولان منه أوراق الدعاية دون اهتمام. تراجع للخلف مرتبكًا، تحسس وجهه سريعًا، وجد القناع مكانه. أنفاسه تتلاحق، ويداه ترتعشان. يذوب ببطء داخل الرداء الملون، تنظر الفتاة في الورق ثم تلتفت إليه مبتسمة ابتسامة مشرقة وتهمس بصوت مضيء: "شكرا" كأنها تعرف أنه هو وتريد تشجيعه.

عاد وتحسس القناع ليطمئن أنها لا تراه. ظلت تنظر قليلاً إلى مكان عينيه، ليواصل انصهاره بالداخل. واصل تراجعه للخلف قبل أن يبتعد عنهما بخطوات وتجذبها أمها لترحلان بعيدًا. تلتفت إليه التفاتة أخيرة والزحام يبتلعها..

سيل الأوراق يتكاثر بين يديه، وإحساس بطعم صدأ يغزو فمه. الرؤية تضبب أمام عينيه، ونشيج هائل يقتلع ضلوعه.

تعدى وقت ورديته بأكثر من ساعتين، و لم يأت الأستاذ شريف بعد. بالأمس عندما جاء في مثل ذلك الوقت اعتذر له بكلمات مقتضبة باردة.

يطفئون أنوار المحل من الداخل، و(الكاشير) يُتمُّ حساباته، ينزلون ثلث الباب الصاجي للمحل. يجلس بالداخل دون أن يخلع قناعه. تعب اليوم جعله لا يتحرك. لا زالت "شكرًا" ترن في أذنيه. والتفاتتها الأخيرة تنير له الظلام داخل القناع العطن. يبتسم بمرارة أسفل قناعه.

عندما انتهوا من تنظيف الأرض، وإزاحة الماء للخارج أخبره أحدهم: "بأن أستاذ شريف اتصل ومش هيقدر ييجي تاني النهاردة.. وطلب مننا نقفل احنا" لثوان لم يفهم، ظل ناظرًا إليه عبر الفتحة الضيقة في وجه القناع:

"وهدومي؟!"

"هدومك جوه.. هههههه..

قالها له وهو يضحك ويبتعد ليكمل إطفاء الأنوار.

"استني..

ينتفض من مكانه وهو يعدو إليه..

"انا.. انا همشي ازاي كدا..

"خلاص، اقلع الزي وسيبه هنا، مش لازم تقلع جوه يعني

قالها بنظرة ساخرة تمسحه بالكامل.

"لأ اصل.... اصلي.....

هو لا يعلم إن كانوا يعلمون أنه يخلع ملابسه بالكامل ليرتدي الزي، لا يعلم هل كانوا يعلمون أنه عارٍ تمامًا؟!

"انا لازم ادخل اوضة استاذ شريف، حاجتي جوه..

يتوقفون بالكامل خارج المحل في انتظاره للخروج.

"الأوضة مقفولة، ومحدش معاه المفتاح، لو ما مشيتش هانقفل عليك هنا.

يرتعش وينشج:

"أبوس ايديكوا، عايز حاجتي من جوه.

"لا يا عم، وفر البوس لأستاذك شريف.. هههههه.

يضحكون كلهم.

يقترب منه أحدهم، ويقوم بلكزه بعنف:

"ياللا يا وسخ عايزين نروح..

تؤلمه اللكزة ويوجعه السباب. يجذبونه للخارج وهم يضحكون، وبسرعة يقومون بسحب الباب الصاج لأسفل ويغلقونه بقفل ضخم ويرحلون تاركين إياه على الرصيف المبلل شبه الخالي.

يسير بالزي مستترًا بالحائط جانبه، يلفت نظر بعض المارة فينظرون إليه ويبتسمون بسخرية. كيف سيدخل شارعه ومنزله أمام أخواته وأمه. أخبرهم بأنه يعمل محاسب (بشهادته) التي لم يأخذها بعد. في الشارع ينادون عليه بـ"أستاذ" وهم لا يعلمون أنه ميكي. يظنونه محاسبًا سيتخرج قريبًا ليحتل مكانه المستحق في أحد البنوك الكبيرة. تدعو له أمه كثيرًا وهي لا تعلم أن الدعاء يرتد من فوق زيه الذي يرتديه.

يتوقف محاولاً التفكير، يتلفت حوله، يُفكر بخلع القناع؛ لكنه يتراجع. يعيد التطلع حوله، محموله بالداخل مع ملابسه ونقوده بحجرة الأستاذ شريف، لا مفرَّ من الذهاب للبيت هكذا.

يظل محافظًا على القناع فوق وجهه، محاولاً السير بسرعة دون النظر لأحد. كلما اقترب من منزله، كلما زادت التعليقات والسخرية. الشوارع تضيق، والإنارة تزداد، والناس يزدادون بذاءة.

لا يعلم أحد أنه هو، سيمرُّ سريعًا بشارعه دون النظر لأحد، سيعدو إن احتاج الأمر، ولن يعرفون أنه هو.

بدأ في البكاء قبل شارعه بقليل، يلهث محاولاً التقاط الهواء من بين دموعه وجريه المجنون كي لا يلاحظه أحد. يدخل شارعه الصغير جريًا. في البداية لم يلاحظه أحد، وفجأة تنبهوا له بالكامل:

"ايه دا؟ امسك.. امسك..

يُكمل جريه الأعمى نحو مدخل بيته أمام الناس، يصعد السلم قفزًا،

يتعثر ليسقط على وجهه أو على قناعه، يهب ليكمل صعوده المجنون، يطرق الباب بيديه الاثنتين. كانوا نائمين. صوت الناس بالشارع يقتحمون مدخل البيت بالأسفل. الشقة المواجهة لشقتهم تُفتح وتضيء النور. يلمح جارتهم المسنة وابنتها الجميلة يصرخان، يسمع المرأة:

"ايه دا؟ دا جه ورانا"

يواصل الطرق وبكاؤه يتصاعد خارج قناعه، يلمح النور بالداخل يُضاء، صوت خطوات مسرعة تقترب من الباب. أخته الصغيرة تفتح الباب وما أن تراه حتى تصرخ بجنون.

يسمع أصوات الناس تصعد مسرعة خلفه متتبعة صرخة أخته. تأتي أمه جارية نحو الباب. يحاول أن يتكلم ليخبرهم بأنه هو النشيج واللهاث يأكلان فمه. لا يجد شفتيه أو لسانه. تصرخ أمه هي الأخرى..

الأصوات على السلم تقترب، يقتحم الباب دافعًا أخته للداخل، نسى الكلام تمامًا، يعدو بسرعة نحو حجرته. أمه وأختاه تطلقان المزيد من الصرخات. يدخل حجرته بسرعة وأصوات الناس تصل للشقة وتدخل للصالة وسط صرخات عائلته العالية.

"فيه إيه..؟ هو فين..؟ هو فين..؟"

يغلق الباب خلفه بالمفتاح بيد مرتعشة، يتقدم لمنتصف الحجرة وهو يسحب من على وجهه القناع الضخم؛ لكنه لم يُخلع. يشده بعنف أكبر، لا يتزحزح. يشعر به يذوب مختلطًا بتضاريس وجهه بالكامل.

يصرخ، ويزوم والطرقات على باب حجرته تتعالى. يحاول مرة أخيرة، والباب خلفه ينهار شدَّ القناع لأعلى بجنون؛ لكنه كان ملتصقًا تمامًا بملامح وجهه..

خروج..

(إيكاروس II)

عندما حلقا سويًا كان إيكاروس يعلم أن عليه ألا يقترب من الشمس؛ لكنه فعل. ما لا يعرفه أبوه، وما لن يعرفه أنه اختار الاقتراب. كان هذا هو الخلاص الذي يعرفه ويبغيه.

- مصطفى محمود زكي نصر.
- مواليد الإسكندرية في 1980/8/24.
- حاصل على ليسانس الآداب/ قسم الفلسفة - جامعة الإسكندرية.
- صدرت له مجموعة قصصية (مشهد من ليل القاهرة) عن دار العين في 2011.

- للتواصل: بريد إلكتروني:

- elect_mmm@yahoo.com
- moustafazaki.alex@gmail.com

- صفحة الفيس بوك:

- https://www.facebook.com/moustafa.zaki.9

هل يحلم الموتى؟

هل نأتيهم في أحلامهم، فيهبُّون فزعين، ليجدوا أنفسهم ما زالوا في لحدهم المظلم الضيق! يتذكروا حياتهم السابقة، ويتذكروا أشياء كانوا قد نسوها.

هل يحلمون؟

أموت ثم أعود ثانية؛ لأموت بعدها مرة أخرى..

وفي كل مرة أراهم في الحلم أمامي، أراهم وأسمع صيحات ديك بعيد تدوّي فأعرف أنني لم أمت، وأنني مستيقظ أهذي.

دار العين للنشر
Elain Publishing House
9 789774 902550